د. وليم نصّار
وطني ع بيوجعني

الكاتب اليساري

المجلة المهجرية الوحيدة المتخصصة

يسارية – أكاديمية – فكرية – ثقافية - نقدية

العدد رقم 71 :: آب – أغسطس 2022

تعنى بابداع الكاتب وحرية النص

Issue No. 71:: August 2022

اقتراق السلطة والشعب : ثقافتان وخطابان

مقام الفرس

جميلات وطني يكشفن النقاب

ناسا . . . وجهاً لوجه مع قريش

هراء أيديولوجي عن الله والبشر والعالم

فيلسوف المعرة ومنحى التنوير في الاسلام

المكان ورقيّ الانسان

صورة من التغريبة الفلسطينية

ما أمرّ قهوة الجنرال

فن الموسيقى السينمائية

رسائل من القدس وإليها

Al Kateb ISSN 1296 – 1425

كونوا شركاء في المحاولة

□ الكاتب مشروع ثقافي أكاديمي لبناني وعربي أسسه مجموعة من المثقفين والمبدعين اللبنانيين والعرب المقيمين في أوروبا، أمريكا الشمالية، والولايات المتحدة الأمريكية.

كانت تصدر الكاتب تحت إسم عيبال، ومن ثم البديل، إلى أن استقر الرأي على اعتماد إسم الكاتب عنوانا للمجلة.

تقصد مجلة الكاتب إلى إثارة السؤال الثقافي العربي في الواقع الراهن، محاولة منها برفده بصوت الجدل الحيوي، المفضي إلى السوية الثقافية، والمحفز إلى مزيد من التلاحم بين الثقافي – الفكري، بل وحتى السياسي في زمن أصبحت التحديات الثقافية أقرب إلى الزلزلة منها إلى الأخذ بالتي هي أحسن، ذلك أن أحوال الثقافات والمثقفين قد تبدلت وأصبحت رهن سيادة الطوائف والأحزاب، وأصبح المثقف أو أشباهه، والجاهل المتثاقف في زمن الفايسبوك يشترى ويباع في أسواق نخاسة الأنظمة والأجهزة والسفارات والغرف السوداء.

إنساننا اللبناني والعربي في الأوطان الأم، وفي المهاجر والمنافي، يجب أن ينهض، وثقافتنا ينبغي أن تتطور وتتوطد، ولابد أن نواجه الراهن ونستعجل أوان نضجه الطالع بالظفر. فكل إبداع هو كوة حرية، وكل فعل هو انعتاق، وكل تلاحم فكر إنساني هو زمن آت.

تمر حيوات، بيد أن حياة ممتلئة هي تلك التي تكتنز الابداع وتثمر الحرية، ولمجلة الكاتب فيها سويعة، لو عانقت أقلامكم واحتضانكم لها، ولا وقت يمر دون بشاراته.

يعمل فريق مجلة الكاتب وأصدقاؤها بشكل تطوعي من أجل:

- توثيق الثقافة والفن الانساني اللبناني والعربي، القديم والموروث، وتقديمه إلى المجتمعات الغير عربية بالوسائل الاكاديمية، عبر محاضرات ثقافية، وترجمة دراسات عن الثقافة والفن والتاريخ اللبناني والعربي، ومن خلال تنظيم معارض فنية وأمسيات موسيقية مع موسيقيين أكاديميين غربيين.
- يشجع ويتبنى فريق الكاتب أعمال الكتاب والشعراء والمبدعين اللبنانيين والعرب، أو المتحدرون من أصول عربية، ويتم نشر إبداعاتهم في مجلة الكاتب التي تصدر بعدة لغات، كما يتم التعريف بتلك الأعمال والابداعات للجمهور العربي والغربي سواء في الأوطان الأم أو المهاجر.
- يؤمن فريق مجلة الكاتب بحرية الفكر والتعبير، ويعتبرهما ركيزة أساسية لبناء المجتمع الديمقراطي اللبناني والعربي، الغير طائفي، والذي يسوده العدل والمساواة والقانون.
- يعمل فريق الكاتب مع المثقفين والمبدعين التقدميين الاوروبيين والعرب في التبشير بضرورة السلام في الشرق بالتوازي مع مقاومة التطبيع السياسي والاقتصادي مع دولة إسرائيل، ليس لأننا لا نؤمن بضرورة حل النزاع في الشرق، بل لأنه لا يمكن أن يكون هنالك سلام في ظل الاستمرار بسياسة الاعتقالات الجماعية، ومصادرة الأراضي، والاعتداءات العسكرية التي لا تنتهي من قبل إسرائيل على وطننا لبنان والدول العربية المجاورة.
- يغطي فريق الكاتب إصدار النسخة الورقية المطبوعة، وكذلك تكاليف الموقع الالكتروني عبر نشر بعض الاعلانات في كل عدد لمرسسات ثقافية وإنسانية وتربوية. إنما التكلفة الحقيقية هي في الجهد المبذول من قبل الفريق لاصدراها، وتبرعات الكتاب والمبدعين بانتاجهم الفكري.
- يعمل فريق المجلة دون مقابل وبشكل تطوعي.
- بانتظار أقلامكم ودعمكم الابداعي□□

فريق الكاتب

تصدر عن عيبال للثقافة البديلة
Published by: Ebal For Alternative Culture
غير تجارية – Non Profit

The Writer
A Cultural Review in
Arabic & Other Languages

الكاتب اليساري
أكاديمية - نقدية - ثقافية - سياسية - فكرية
مجلة يسارية تصدر بعدة لغات

Editor – In – Chief
Composer and Political Singer
Dr. William Nassar

صاحبها ورئيس التحرير
المؤلف الموسيقي والمغني السياسي
د. وليم نصار

سكرتيرا التحرير
د. فيوليت دمياطي
د. منهال حديدي

مستشارا التحرير
عز الدين المصري
لينا حوا

مدراء التحرير
جوزفين فرنجية
مارون سلوم
يزن الأحمد
Anna White

فريق الكاتب
حسن زيدان
سلاف العلي
كمال أبو عيسي
أنطوان الراسي
جريس سلامة
حمزة مرتضى
علي الحسن
Richard Bordeaux
Chantal Temin

استشارة قانونية
Legal Advisor
Katarina Theodorakis
كاتارينا ثيودوراكيس

إعلانات
كارولين قحطاني
Vera Bellianti

مدراء الصفحة الالكترونية
نيرودا خوري
Patrick Laroc
Mary Quick

النسخة الالكترونية
https://al-kateb.com
E-Mail: alkateb@journalist.com
https://facebook.com/majallatalkateb

رقم التسجيل الدولي
ISSN 2563 - 3007

كلمة العدد

4
د. وليم نصار
وطني ع بيوجعني

المقال

5
الفضل شلق
افتراق السلطة والشعب: ثقافتان وخطابان
7
عذري مازغ
مقام الفرس
8
ليلى موسى
جميلات وطني يكشفن النقاب عن القبح الدّولي
10
د. غازي الصوراني
مجتمع المعرفة في الوطن العربي في ظل العولمة
22
جواد بولس
حمّى البحر المتوسط
23
د. حسيب شحادة
نتفة عن الراهب الفرنسيّ والعربيّة الفلسطينيّة
24
عبد الرزاق دحنون
فيلسوف المعرَّة المعبِّر الأمثل عن منحى التنوير في الإسلام
25
د. خالد سالم
ذكريات إسبانية في وداع الحكاء الأخير الدكتور أحمد مرسي
29
سعيد مضية
قوة ضاربة للفاشية
31
نضال نعيسة
ناسا ... وجهاً لوجه مع قريش
32
د. مازن كم الماز
هراء ايديولوجي عن الله و البشر و العالم

آخر كلمة

34
ماجد ع. محمد
المكان ورقيّ الانسان

تغريدة

35
إيلي حج
كل شي على ما يرام

النقد

15
عطا درغام
فن الموسيقي السينمائية
17
رياض كامل
"الطيور تعود إلى أعشاشها" والكتابة المغايرة
27
زياد جيوسي
رسائل من القدس وإليها ما بين الواقع والذات

القصة

6
مختار سعد شحاتة
طفلان
26
د. أحمد الخميسي
ورقة أخيرة

القصيدة

21
سعد جاسم
كلُّ نوافذِ العالمِ مفتوحةٌ لتراتيلِ النوّاب

واحات

28
ضيا اسكندر
ما أمرّ قهوة الجنرال
31
الشرقي لبريز
حلم يعرّي واقعا
33
جهاد ابو ريا
صورة من التغريبة الفلسطينية

الغلاف: للتشكيلي السوري عمر الجبين
Cover: Painting by Umar al Jabin, Syria
تصميم وإخراج: زينب ريحان – بولاند صادق، Guy Reynolds

طبع من هذا العدد 1500 نسخة ورقية وزعت مجانا على المراكز الثقافية والجامعات والمكتبات العامة في الولايات المتحدة الأمريكية، أمريكا الشمالية، أوروبا، أستراليا واليابان

وطني ع بيوجعني

-1-❑
طفلة ..
تنتظر عودة أبيها الشهيد عند محطة القطار ....
تحمل باقة ورد ليلكي في طقس صقيعي...
الطقس مثلج ... تبقى منتظرة إلى ان تتجمد من البرد ...
فتلتحق بأبيها الشهيد ...

-2-
زوجة شهيد ...
تنتظر مرور طيف زوجها ... كل صباح بارد...
يحن عليها مسؤول كبير ...
يساومها على راتب زوجها الشهيد ...
تحقق النصر على جسدها ...

-3-
أم ...
تقف عند حافة قبر ابنها ..
تصرخ برفاقه ..
لا تهيلوا عليه التراب ...
أرجعوه إلى حضني لأرضعه ..
سيعود للحياة ...

د. وليم نصار
رئيس التحرير

-4-
مقاتلون ... يزورون صديقهم الجريح في المستشفى ...
يدخلون غرفة رفيقهم ...
سرير أبيض ..
مقاتل مصاب في الرأس فاقد الوعي ..
يتلو عليه أصدقاؤه كل بدوره صلاة الحب ..
يصلي الأول: فدتك روحي يارفيق العمر ..
يصلي الثاني: لا تستسلم .. واستلق على سريرك كالفارس ...
يصلي الثالث: لا تتركنا .. نحن الأحياء الأموات ...
يصلي الرابع: لا تكن بخيلا ... إفتح عينيك ...
يفتح المقاتل المصاب عينيه ...
يبتسم ... وتكرج دمعة ..
يسلم الروح ...
ملاحظة: كان المقاتل الجريح يرى رفاقه الشهداء ...

-5-
صبية ..
تنتظر حبيبها المعتقل ...
ترسل له كل ليلة ... على جناح حمامة أغنية ..
" الليلة منورها القمر ... ردولي حبيبي ..
إن كان حبيبي نايم ... غنوا لحبيبي ..."
... وبقيت تنتظر .. فحبيبها محكوم خمسة مؤبدات إسرائيلية ... وغسيل دماغ ثوري

-6-
أوقفوا حروبكم العبثية ...

-7-
الرب ..
لم يسترح في اليوم السابع ...
نظر إلى خلقه ...
ندم ...
بكى ...
وانتحر حزنا ❑❑

❑ إن كنت لا تدري فتلك مصيبة وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

افتراق السلطة والشعب ثقافتان وخطابان

الفضل شلق
لبنان

كما أن في الدول الديمقراطية يمين ويسار، لكل منهما خطاب، ففي بلدان الاستبداد خطابان. لكل منهما جمهرة من المثقفين. ومن الطبيعي أن يكون خطاب السلطة هو الأكثر علانية، وتابعوها هم الأكثرية العددية، بينما المثقفون المعارضون للسلطة غالباً من يكونون في عزلة أو في السجن أو في المنفى.

تستخدم السلطة رقابة الأجهزة الأمنية. وتزودها الرقابة بمسطرة يقاس بها ما يلفظ. ويقيَّم أصحاب اللفظ على أساسه. ويتلقون العقاب أو المكافأة تبعاً لذلك. لا بدّ أن تدعي السلطة حماية الوطن في وجه المؤامرات الخارجية. فهي تحتاج للجيش للدفاع عن الحدود، وللحرس الجمهوري لحماية الرئيس، وللحرس الثوري لحماية النظام، بغض النظر إذا شكّل كل ذلك دولة داخل الدولة، أو على العموم، استقلالية ضمن الدولة، وموازنة خاصة منفصلة عن الدولة.

تعتبر السلطة أن هناك خطراً خارجياً، والخطر دائم وأبدي. مستمر مع بقاء السلطة. أو هو ضروري لبقاء السلطة.

في غالب الأحيان يستدعي وجود السلطة قضية كبرى، تعتبر السلطة أن وجودها مكرّس لها. قضية فلسطين مثلا. ولو لم توجد لوجد أمراً آخر للتذرّع به، مثل الخلاف مع دولة مجاورة، أو وجود أقلية ناشطة في بلد مجاور ولها امتدادات في بلد السلطة، أو خلاف على مياه نهر يجري في أكثر من دولة، أو وجود مواد أولية، كالنفط والغاز في حقول بحرية أو برية، يستحسن أن يطول التفاوض بشأنها، من أجل إبقاء الأجواء ساخنة مع إمكانية تطورها لحرب.

في كل الأحوال هناك الامبريالية. بغض النظر عن معرفة أهل السلطة بآلية عمل القوى الامبريالية، فإن هذه تصنّف الى ما هو صديق وما هو عدو. الصديق لا يحتل ولا يمارس أعمال الاحتلال. العدو هو من يتعدى على السيادة والاستقلال. السيادة مسألة نسبية لا تتعلّق بسيادة المجتمع على نفسه، بل ببقاء السلطة حتى ولو كانت قراراتها مستلبة. وهي في الأساس تستلب ما للمجتمع من قرارات. في الاستبداد، هي سيادة السلطة على المجتمع.

أهل السلطة لا يتحدثون عن المجتمع بل عن الشعب، ويعتبرونه مقولة. والمقولة تحتل فيها ثنائية الشعب والسلطة مكاناً أساسياً. يتحدثون أحيانا عن المجتمع والدولة، لكن بمعنى وحدانية المجتمع، وتجسدها في مقولة الشعب. وبمعنى حلول الدولة في السلطة. المجتمع متعدد وهذا ما لا يحبه أهل السلطة. والشعب واحد خاصة إذا كان في قبضة السلطة. عقل بسيط مسطّح. راحة العقل تستبعد تعقيدات البحث في المجتمع، وتعدديته، وتعدد الهويات، وأمر السياسة والنقاش والحوار والسؤال والشك.

والامبريالية لا بدّ من مواجهتها على جميع الأصعدة السياسية والثقافية، وخاصة أنها تدعم إسرائيل. يجب على المجتمع أن يكون على أهبة تامة، وجهوزية، ويقظة للمواجهة ولالتقاط كل ما يمس بوحدة الشعب أو كرامة الأمة. حالة تعبئة دائمة سياسية وثقافية لا تضاهيها إلا حالة الطوارئ. حالة مستمرة من الاستثارة يحيث لا تعود حالة الطوارئ المستمرة منذ الاستقلال ذات أهمية. مواجهة الاستعمار ذات أولوية أولى، وعلى الشعب أن يكون تام الجهوزية. وعلى كل فرد أن يتدرّب على القتال. فيؤدي خدمة عسكرية اجبارية لمدة طويلة. أبناء الأغنياء يدفعون البدل. فالشعب من الفقراء الذين يجب أن يكونوا فقراء. هم الذين يقاتلون إذا وقع المحظور وحدثت الحرب. الطغاة جبناء. غالباً ما يتلافون الحرب رغم التحريض عليها، إلا إذا كانت سلطتهم الشخصية مهددة. تهديد الوطن يمكن أن تعقد صفقة بشأنه.

قضايا المواجهة يجب أن تكون كبرى، من امبريالية الى مقاومة، الى غزو ثقافي، لكي تتناسب الأحكام، التي تكون عادة جائرة وظالمة، ضد من تسوّل له نفسه. لكي تنصرف الأعين والبصائر عن الأحوال اليومية البائسة. إفراغ عقل الشعب، أو هكذا يزعمون، مهمة أساسية. الفاشية القومية تستوجب ذلك.

قضايا الناس، الذين يشكلون المجتمع، أكثر تواضعاً كما يبدو، لكنها أكثر أهمية. لخصتها ثورة 2011 بما يلي: "حرية، عيش، عدالة اجتماعية". أنظمة الاستقلال والتحرر الوطني تضمن حرية المجتمع، ولو نسبيا أو نظرياً، ولا تضمن الحرية داخل المجتمع. هي بالأحرى، ضد الحرية في المجتمع. جميعها تمارس القمع والتنكيل بالرأي الحر وأصحابه. وتسعى لفرض آراء سادتها وسرديات أنظمتها. بالحرية، الفردية خاصة، يسترد البشري إنسانيته. لذلك، فهي مطلب الناس الأساسي. وجودها أو عدمه قضية وجود. هي من ضرورات الوجود. الناس يرونها بمثابة الخبز وبقية الغذاء.

المجتمع الحر مجتمع مفتوح تعج فيه الأفكار، ويشتد النقاش، ويستعر الخلاف. كل ذلك بما يوقد شعلة العقل والسؤال والشك.

الحرية بلا شك غائبة عن خطاب السلطة. التحرر الوطني لديها يعني الاستقلال وحسب. ويلعب الطاغية دور الاستعمار أو الامبريالية في احتلال غير مباشر، واستعباد مباشر. الحرية نقيض العبودية. الحرية خطاب الناس والعبودية خطاب السلطة.

تعبير "عيش" يعني الخبز، ويتضمن بقية الغذاء. الفقر هو في بعضه عجز عن توفير الخبز أو العيش الكريم لمن يحتاجه. تقصّر أنظمة الاستبداد في ذلك وتنتقده. إفقار الناس جرى من سياساتها، كما كان في سياسات الاستعمار، أو الانتداب، قبل التحرر الوطني. استمرار الإفقار في عهد الاستقلال، تعبير عن وحدة الرؤيا نحو المجتمع. فالاستقلال والتحرر الوطني في ظل الاستبداد تطبيق لسياسة الاستعمار. فيه إنهاك للمجتمع، وشل قواه، وخوار عزمه. وذلك قابع في أساس الهـزيمة التي كرستها أنظمـة التحرر الوطني

والشعارات الكبرى المفرغة من قضايا الناس وحاجاتهم. يعتبر مثقفو السلطة أن الاقتصاد مسألة جانبية، فيركزون جهدهم، وعقلهم، ووعيهم، على القضايا السياسية دون إدراك أن الاقتصاد هو جوهر السياسة. يعزلون السياسة عن الاقتصاد. الاقتصاد دون السياسة مبتذل، والسياسة دون الاقتصاد أكثر ابتذالاً. وخلو خطاب المثقفين من التركيز على الاقتصاد لجعله جوهر السياسة هو ما تريده السلطة. الناس يريدون اقتصاداً سياسياً يعني فيما يعنيه، العمل والإنتاج. ويعرفون أن ذلك قاعدة للحرية. ويطالبون بذلك. تجاهل هذ الأمر انحياز لسياسة السلطة. المسألة ليست شكلية بل تتعلّق بالوجود وإنسانية هذا الوجود في وطننا العربي. الإفقار المتعمّد يشل نهوض المجتمع بما فيه التوهج الفكري والثقافي عامة. الإفقار، وهو متعمّد، يدفع الى غير النهوض. الى استنقاع ثقافي تنمو فيه طفيليات الأصولية والمزاج الديني المغلق. ومن غير الممكن الاستنتاج أن انتشار المزاج الديني، لا النهوض الثقافي وتفجر الوعي، إلا حصيلة سياسات أنظمة الاستبداد ومثقفي السلطة. المحزن أن خفوت الوعي الاجتماعي في عصر الاستقلال أشد وأدهى مما كان قبله. ليست الأمة مجرد تصوّر بل هي المجتمع في حالته الراهنة. ومن هنا، لهذه الأسباب، يكرهون تعبير المجتمع ويفضلون تعبير الشعب. المجتمع يفترض أنه متعدد والشعب مقولة توحّد.

أما مطلب العدالة الاجتماعية، ففيه رفض لواقع فاقع الظهور، من فجوة في المداخيل بين أهل السلطة وعموم الناس، وهوة سحيقة بين الناس ونخب السلطة، ناتجة عن الفروق الهائلة في الثروات. إن تجزئة الأمة ليست مسألة حدود بين أقطار وحسب، بل هي الفجوة في المداخيل، والهوة في الثروات داخل كل بلد عربي، مما أصبح مصدراً لحروب أهلية تمولها بالمال والسلاح الثورة المضادة.

صرنا مجتمعات فاقدة الكرامة، غارقة في الهزيمة، عاجزة عن الصمود، بسبب انعدام الحرية لكل فرد منا، والفقر الذي يجتاحنا، وانعدام العدالة الاجتماعية الذي يجعل الدونية بأكثرية الناس.

يقودنا ذلك الى رؤية أن لدينا ثقافتين في كل مجتمع عربي، الى جانب التعددية الإثنية والطائفية، وهما ثقافة السلطة، وثقافة الناس. ثورة 2011 العربية أدركت ذلك، وعبرت عنه بشعار "الشعب يريد إسقاط النظام"، وشعار "حرية، عيش كرامة أو عدالة اجتماعية". الثورة المضادة رفضت ذلك. نشرت شعارات ترمي الى تأبيد الحالة الراهنة. خطاب "المؤتمر القومي العربي"، و"المؤتمر القومي الإسلامي" هو خطاب السلطة، بغض النظر عن النوايا الطيبة عند المشاركيين فيهما. المسألة هي في الوعي. سواء أدركوا أم لم يدركوا، فالأمر سيان.

خطاب السلطة تعبير عن ثقافة مفرغة من قضايا الناس. خطاب المجتمع هو تعبير عن الوجود وحاجات هذا الوجود البشري. بين ثقافة المقولات وثقافة الوجود نختار الثانية. هم اختاروا الأولى. لا اعتراض على ثقافة الشعارات، حتى ولو كانت مفرغة، سوى أن المجتمع فاقد الحرية والخبز والكرامة. هو شعب منهك، وغير قادر على الخروج من قاع الهزيمة.

لا تتعلّق المسألة بالتشكيك بنوايا أعضاء المؤتمرين. لكن طريق جهنم مزروعة بالنوايا الطيبة ❑❑

طفلان

مختار سعد شحاتة
مصر

❑ على الرصيف جلسا، يدخنان، وتركا قلبيهما يهيمان على جسر المسافات والصدف النادرة، يدخلان إلى قلب التجربة باقتدار عجيب، ويفرشان الحكايات عن الناس البغيضة كسجادة في باحة أمامهما، ويرسمان بالدخان بيتًا سعيدًا...

يمر الناس حولهما معجبين بطفلي الشوارع الجديدين على المدينة، وتقول امرأة تركن سيارتها وخافت أن يثير الهواء بيت الجالسين على الرصيف يغنيان "واش يا واش يا مرجيحة، متخضهاش يا مرجيحة"، المرأة صينية أو يابانية لا يميز الطفلان، لكنهما يبتسمان ويردان التحية بأجمل منها عبر الابتسام، وحضن له صوت كالخرير...

يقول آخر يرافق المرأة بأن المدينة لم تر أطفالاً في الشوارع يدخنان في سعادة، ويضحكان، وتمتلأ ساحة السيارات بريح المريمية، حين تضاف إلى كل شيء فتغلبه، هكذا غمازة الطفلة كانت تغزو الساحة بالكامل، والطفل يراقب بيت الدخان المعكوس في نظارة شمسية تحاول الطفلة أن تحجب بها الغياب، والطفل مثلها، يخفي أثر السلام، وتعب أحماله الجديدة، ويشرح لها كيف يمكن أن تتحول الأحلام إلى كوابيس مفزعة للصغار...

يمر في الجوار بائع جائل يبيع للصبايا أحلامًا من نيون ولمبات كهربية ملونة، ينادي في الناس من يسافر معي إلى مدينة الحظ والداء والدواء، من يأتي وله ما يشاء من أحلام النيون...

الطفل يحاول أن يحجب الصوت، والبائع الجائل الذي تحول فجأة إلي عفريت كالأخطبوط، يحاول اختطاف الطفلة التي تحلم بالكهارب والنيون...

الطفل ضعيف، فقير، في جيبه عملات غسالة الملابس، ودولار لا يغادر جيبه تحجج بأنه يريد أن يبقى في صحبة الطفل الوحيد، وصوت أجراس وأغنيات الإسطوانات الحديثة يهز بيت الدخان بعنف بالغ وبلا انتباه...

الطفلة تصرخ وترقص، أريد الرقص يا ولد، أريد أن يكتب اسمي هذا الإخطبوط باللمبات الكهربية الملونة، والطفل يرى في نضارة الشمس بيت دخانهما يطير...
يغير...

الغيرة تقتل يا ولد!

الطفلة يخطفها الإخطبوط، والطفل ينظر نحوها حين كانت تشير من خلف زجاج سيارة الإخطبوط خاطف الصبايا البريئات، ويحاول أن يبتسم لها كما يليق...
يُشعل سيجارتين، ويجتهد أن يرسم بيتًا من جديد ❑❑

مقام الفرس

عذري مازغ
المغرب

❑ نكتة حول ارويشة: كان مسجونا فكان السجناء جميعا يعرفونه لشهرته إلا سجين واحد كان يتجاهله، ومرة اقترب منه رويشة وسأله: انت لا تعرفني؟

رد عليه السجين: "لو كنت اعرفك لما دخلت السجن"، النكتة تحيل إلى أن السجين هو معتقل سياسي ورويشة يحيل إلى أنه فنان لهو وفساد ومربي شيخات، رغم ذلك، رغم هذا التحريض التقدمي المعلن لم يمت رويشة في ذاتنا، نعم هو مغني اطلسي شعبوي لكن فنيا كان يرقى إلى مستوى فريد الأطرش: رويشة مثلا أقام (قلد مقام الربيع لفريد الأطرش بالوتر الامازيغي وليس بالعود لدرجة وضع هذا المقام في مسابقة تلفزية بوضع السؤال: لمن هذا المقطع وكانت الإجابات : لفريد الأطرش بينما كانت لرويشة).

لرويشة مقامات أبدعها ولم يسميها، كان الامر نوعا من "لقصارة" عيث آخر! لكن في الحقيقة كانت مقاطع جميلة جدا، في ألباسيتي سنة 2002 كنت استمع لمقطع له، موسيقى صامتة، ولسبب ما ذكرتني إيقاعاتها برقصة الفرس، كنت اسمع ذلك الإيقاع في ألباسيتي واتخيل اني في عيد عرش السبعينات بمريرت، عيد الخيم واحيدوس والتبوريدة وانتشار البغال في الحلقات الفنية لكن موسيقى ارويشة ذكرتني أكثر برقص الفرس : حين ينتهي السباق في التبوريدة وتعود الخيول إلى نقطة الأنطلاق ، تعود وهي بشكل فني متنفرة من راكبها: الفارس عندنا ليس من يركب الفرس بل من يروض وحشيتها وهو فوق الفرس، لمعرفة هذا يجب ان تعرف ان فرس التبوريدة ليس فرسا مهذبا كالفرس الأوربي، بل هو فرس "حر" التي تعني ببساطة فرس متوحش لم يألف قرب الناس إليه.

إن الفارس بهذا عندنا هو بطل، يعني برغم حرارة الفرس وفطنته الموحشة يستطيع ان يروضه في الركوب، في الكثير من المقاطع لرويشة الصامتة في انتقاله من أغنية إلى أخرى، ألمس هذه الحركة من الفرس ولا استطيع وصفها لأنها حركة معقدة: فرس يريد أن يسقطك وانت ثابت فوقه تلجمه بأشكال تجعله يثير رقصات موحشة لكنها مع ذلك فنية رائعة، صحيح ان ارويشة كانت تغمره إرادة ان يكون مثقفا أكاديميا وليس فقط مثقف عادي (في كل استجواباته مع الإذاعة والتلفزية يبدو شيزوفرينيا وهذه عقدة كرسها التعليم المغربي: المثقف هو من يتكلم لغة القرآن أو لغة فوكو بينما الثقافة في الحقيقة هي ايضا ما تقوله الحاجة الحمداوية بلغتها المغربية العادية حول اغانيها ورقصها، بشكل عام هذه الشيزوفرينية التي مورست من خلال النكتة على ارويشة جعلته اكثر تصوفا مع تقدم السن، لكن ما اريد أن أثيره هو ان في الكثير من إبداعاته الصامتة والتي لم يعنونها او يؤسسها كمقام موسيقي صامتة بقيت مجهولة، اخاف ان يتبناها احدهم ويسجلها باسمه وعموما ما دمنا نعيش لن نسمح بذلك.

لكن ليست هنا المشكلة!

مع شعار اللطيف عند ظهور ما يسمونه الظهير البربري، انتزع من الأمازيغ كل تعبير في التحرر توظف فيه الامازيغية أو بعبارة أدق انتزع منهم اللسان الأمازيغي، الحركة التقدمية بالمغرب حينها لا معنى لها في ان تكون باللسان الأمازيغي، غنها لغة متخلفة رغم أنه في الميدان كانت الحركة الامازيغية عكس الحركة المدينية ثورية بشكل فاجر: يعني كانت توصف من طرف المثقفين المغاربة بفرنسا (طلبة المغرب بفرنسا) وبالمشرق (طلبة المغرب في مصر وسوريا) بالهمجيين والإرهابيين، وعموما في المغرب عند الامازيغ هناك فهم تقليدي: "أغاراس اغاراس" عند الأمازيغ في المغرب ليس هناك ازدواجية إما انك معنا او انك ضدنا، لم تكن ثقافة التهذيب سائدة كما الآن، كانت ثقافة " أغاراس أغاراس" شعار ضد الإزدواجية، لفهم هذا الشعار أحيلكم إلى معركة واد المخازن بين الدولة السعدية ودولة البرتوغال: الذين ساندوا السعديين لم يكونوا بالضرورة راضين على دولة السعديين بل كانت القاعدة هي كالتالي: "معك ضد الأجنبي ولو اني لست معك" ومعنى هذا أني معك ضد الأجنبي، وحين ننتهي من هذا، لدينا حسابات أخرى فيما بيننا.

"أغاراس أغاراس" هو في الأمازيغية مبدأ اتفاق: نحدد نقطه ونقول : اغاراس أغاراس (يعني طريق لا يمكن ان ننحاز عنه وهو مبدأ الاتفاق) يعني لا تهم التناقضات بيننا إلا حين ننتهي من الطرف النقيض الرئيسي (نفس الإشكال حاليا الذي تمارسه الدولة: سنلتزم بالسلم الإجتماعي حتى نتغلب على النقيض الرئيسي وهذا موضوع آخر لأن في الصراع الدولي هناك دائما إكراهات متجددة نركب او تركب الدولة عليها لضمان السلم الاجتماعي). "اغاراس أغاراس" تعني: مهما كانت الظروف سنلتزم بالإتفاق وهذا كان شعار الحركة الوطنية ضد الاستعمار في المغرب عند الأميين (أقصد الذين لهم لغة ولا يكتبونها كما يكتبها فولتير وطه حسين) وهو بالطبع اتفاق شفهي بين القبائل الأمازيغية بالمغرب، الفكر التقدمي سواء جاء من فرنسا أم من دمشق أو مصر جاء بشكل غير مستوعب لواقعنا، جاء بشعارات ضخمة تتجاوزنا: جاءتنا مثلا الاشتراكية بشكل قومي عربي تعني في الأساس نكران هويتنا، من فرنسا جاء على شكل اممية خرقاء أيضا تعني لا وجود لنا إلا في التموقع في الصراع الطبقي، يعني ان نحدد وجودنا كطبقة عاملة أو كطبقة بورجوازية في الوقت الذي كانت انماطنا بشكل فطري "اشتراكية" (اشتراكية بدائية إن شئت): لم تكن لدينا الملكية الخاصة بل السائد هو الملكية الجماعية (نمط المجتمع الرحالي في المغرب بالتحديد).

لم تكن القومية العربية موفقة ولا الأممية الاشتراكية الفرنسية أيضا موفقة وكل طلبة التهذيب الحضاري سواء كانوا طلبة في المشرق اوطلبة في الغرب بفرنسا/ كانوا خونة على أقل تقدير (إقرأ منشورات وزراء فرنسا الاستعمارية في الخمسينات والستينات: كل زعمائنا الوطنيين كانوا خونة في فرنسا وجزء منهم الآن هم من يمثل الطبقة البورجوازية، نعم أضف إليهم طلبة دمشق ومصر الذين حولوا كل ثقافتنا إلى ثاقفة اموية وعباسية وجاهلية).

ساعدت الأمية الأمازيغية (الامازيغية كلغة لم تكن تكتب او تدرس) في ان يتحضر هؤلاء بالمعنى السلبي الذي يضعه مهدي عامل في مقدماته الرائعة: الحضارة ليست ان تكون تدرس وتنتقم من جهل اهلك: الحضارة هي تهذيب السلوكات العدوانية في حاضرة معينة (تعريف ابن خلدون، في اللغة، الحضارة هي هذا المجز بين لغات بدوية تجمعت في حاضرة اومدينة وليست خيانة الشعوب باسم التقدم: الحضر أيضا يعني العمران والهندسة الأرشتيكتية والفن وغير ذلك، يعني ببساطة ما يبنى في المدينة وهو مزيج لتأثيرات ثقافية موجودة بالمدينة). المدنية لا تعني أن أنقل البناء والعمران واللغة والثقافة الغربية إلى شعب آخر بل هو بناء ينشأ من ذاته، من نسيج ثقافة ممتزجة في مدينة معينة بما فيها تلاقحها مع البراني .

في أوربا مثلا، في مدنها يتم تصقيل الثقافات الهوياتية، في برشلونة مثلا، كل الأزقة والساحات العمومية والمعالم الحضارية بأسماء كتلانية، وجدت هذا ايضا في الباسك، وعموما هناك عملية تصقيل الهويات في المدن: يضعون أسماء ومعالم المنطقة أسماء لمعالم المدينة وبعدها في سياق التعبير عن التفتح يضعون مثلا شارع دوسيفسكي برغم أنه ليس باسكي بل لأثر معالمه الثقافية العالمية، في المغرب مثلا تجد اسماء أزقة لا يعرفها المواطن العادي وليست علما مغربيا أصلا.

بشكل عام الثقافة السائدة في المغرب في شقها القومي العربي او الفرنسي الغربي صنعت منا شخصية شيزوفرينية تكره ذاتها ومظاهرها عديدة من خلال أسماء المدن والانهار والجبال وغيرها، مثلا: مدينة فزاز هي فاس الحالية، تيطاوين هي تطوان، موربيع هو ام الربيع وهلم جرا إلا ما كان مانعا بشكل لا يمكن تغيير اسمه.

عند الأستقلال الشكلي كان الصراع الثقافي في المغرب هو بين خونة المشرق وخونة الغرب، بين طلبة دمشق والقاهرة وطلبة باريس ولا زال هذا الصراع حتى الآن متوهجا بينهم في الدفاع عن الفرنسية او عن العربية والشاطرون من مثقفي العصر الحديث تنكوا للكل يفضلون الإنجليزية تجاوزا للصراع.

سأعود إلى نكتة رويشة: رويشة في المدرسة كان طالبا مشاغبا، لكن مع ذلك كان فنانا بالفطرة، كان ينزع خيوط سرواله المتمددة (خيوط لاستيك) ليصنع بها اوتارا موسيقية (هذا ما اعرفه عنه شخصيا لانه ابن بلدي) وربما طرد لانه كان مشاغبا، لكنه بالفعل، في مساره الموسيقي أبدع، بداية كان يقلد اوتار الموسيقى المصرية (الغزو القومي

الناصري أو الدمشقي الذي تكلمت عنه) متمثلا في انواع موسيقى العود (مقام الربيع الذي ذكرته هنا والذي ارويشة كان يتقنه بالوتر المغربي وليس بالعود وأعتقد انه كان يتقنه ب"لاستيك" سروالة)، لكن في مساره التطوري أبدع مقام رقصة الفرس والتي أخاف ان يسرقها هؤلاء الموهوبون بثقافة الحظيظ كما فعلوا مع مقام الراي: (الراي أغنية امازيغية قديمة).

ملاحظة: الأغاني المغاربية ولا اقصد فقط المغربية التي تنتسب إلى شريحة الشاب "حمو حزوظ" كلماتها تفتقد إلى الإيقاع، أقصد إيقاع الكلمة حيث هي اغاني تصقل كلاما عاديا في اغنية، إن ترجمة اغنية انجليزية او إسبانية او حتى أي لغة إلى العربية، في الترجمة لا يترجم الإيقاع، أقصد إيقع الكلمة، وإذا بدت الأعنية في لغة اخرى جميلة، لا يعني ذلك أن ترجمتها جميل إلى العربية، لكن الاغاني الغربية في لغتها تحتفظ بهذا الإيقاع : "ادخلت الدار، كنت عيان، جطيت راسي في المخدة، النعاس مابغاش إجيني" انها جمل تعبر عن واقع لكنها ليست اغنية، هذا كله كلام عادي لا إيقاع مسيقي فيه وإذا غناه شاب ما ورصعه بالموسيقى فهو يشوه مباديء الغناء أصلا ❑❑

MEMORIAL UNIVERSITY

جميلات وطني يكشفن النقاب عن القبح الدّولي

ليلى موسى
سورية

❑ بينما كانت شعوب شمالي وشرقي سوريا يحتفلون بمناسبة مرور الذكرى العاشرة لثورة 19 تموز، تلك الثورة التي تحولت إلى أيقونة عالمية اختلطت فيها دماء الأحرار ودعاة الإنسانية من جميع أرجاء المعمورة في محاربة الإرهاب والتطرف.

ثورة حمت الإنسانية والعالم من إرهاب أعتى تنظيم إرهابي –داعش-. ثورة خرجت من إطارها المحلي لتصبح نموذجاً وملكاً للإنسانية وجميع الشعوب المضطهدة والتواقة للحرية والعدالة الاجتماعية و الديمقراطية.

من روج آفا أُعيد كتابة التاريخ من جديد بحروف من دمٍ والألم والجراح والعرق والكدح، حين قررت شعوبها بعد عقود من الاستبداد والديكتاتورية، الانتفاض في وجهها وقيادة الشعب لمجتمعه بنفسه.

ثورة أعادت للإنسانية والمجتمع والشعوب رونقهم، وثورة كانت بمثابة العودة إلى الذات بعد رحلة غياب في متاهات العبودية والظلام، ثورة العودة إلى الحقيقة إنها عين الحقيقة عبر استعادة وقيادة وريادة المرأة لمجتمعها، متحدية جميع الأعراف والقوالب والتابوهات والحدود والمعايير المصطنعة المفروضة عليها، والبعيدة كل البعد عن كينونتها وجوهرها.

حينما أدركت ذاتها، أدركت حقيقة مجتمعها، فأحدثت المرأة في روج آفا طفرة نوعية في تاريخ الثورات عبر التاريخ. حيث أوقدت ثورة داخل ثورة وسمتها بثورة المرأة. استمدت اسم ثورتها من اسمها لأنها أجمل وأفضل وأرق ما يمكن إن يعبر ويصف عن ثورتها المباركة.

ثورة أرعبت أعداء الإنسانية والطبيعة والمجتمع، لأنها مبنية على الفكر الحر المسؤول. نسوة قدّن ثورة لأنهن عشقن الوطن والإنسانية، خرجن من ذواتهن لتنعم مجتمعاتهن والعالم بالسلام والأمن والاستقرار. ثورة حطمت جميع حدود الخوف والممنوع وأصنام السلطة والاستعباد والاستبداد والديكتاتورية.

نساء عشقن الموت ليمنحن الحياة التدفق والصيرورة، فثرن غضباً على أعداء الإنسانية والحرية الذين يستمدون استمرارية وأمن وجودهم عبر إبادة الأخرين. نساء لقنّ العالم دروساً في التضحية والكفاح والأخلاق والإنسانية والوفاء وعشق الأوطان وأخوة الشعوب والعيش المشترك واحترام وتقدير المرأة وريادتها للمجتمع.

فنساء روج آفا كما عودتنا بأن تكونن حاضرة في جميع المحافل والمناسبات، وهذه المرة كما غيرها من المرات السابقة حيث نظمن ملتقى في مدينة قامشلو حول ذكرى العاشرة لثورة 19 تموز على مدار يومين 22 و23 تموز، وكانت القيادية جيان تولهدان في قوات سوريا الديمقراطية وقائدة وحدات مكافحة الإرهاب محاضرة في الملتقى تتحدث فيها عن مناقب ثورة المرأة التي أحدثت طفرة نوعية وحققت مكاسب عظيمة لها وضرورة الحفاظ عليها، متعهدة بنفس الوقت السير على نهج شهيدات الحرية والانتقام لهن واستكمال رسالتهن والمضي قدماً حتى تحقيق الثورة لأهدافها وحماية شعبها والعالم وتحقيق السلم والأمن الدوليين عبر القضاء على الإرهاب وتجفيف منابعه وتحرير المرأة وأخر شبر من الأراضي المحتلة.

وهي في طريق العودة بعد انتهاء اليوم الأول من الملتقى على طريق ما بين مدينة قامشلو وتربسبيه برفقة اثنتين من رفيقات دربها القيادية روج خابون وبارين بوطان في مكافحة الإرهاب، تعرضن لاستهداف عمل إجرامي وإرهابي من قبل طائرة مسيرة تركية ليرتقين إلى مرتبة الشهادة.

ولتستمر فعاليات الملتقى في اليوم الثاني مع رفع صور الشهيدات الثلاثة، وتعهد جميع المشاركات السير على نهجهن واستكمال رسالتهن وبأن تتحول محاضرة القيادية جيان تولهدان عن المرأة وثورتها إلى تعليمات لهن.

بالأمس كانت هفرين وزهرة وبارين وهبون وسعدة وغيرهن الكثير الكثير من القديسات اللواتي ارتقين إلى مرتبة الشهادة، واليوم جيان وبارين وروج. وبالرغم من جميع إجرام دولة الاحتلال التركي بحق نساء شمالي وشرقي سوريا، لم تتمكن النيل من إرادتهن واصرارهن وعزيمتهن على العكس من ذلك دائرة النضال والاصرار في المقاومة تتسع يوماً بعد يوم.

الدولة التركية بعملها الجبان بحق القياديات لهو خير دليل من أجل الانتقام لداعش، وكسر عزيمتهن، وفشلها في إقناع الفاعلين الأساسيين في الأزمة السورية بشن عملية عسكرية جديدة على مناطق الإدارة الذاتية.

مثلما حملت شهيدة اليوم بارين اسم الشهيدة بارين كوباني في مقاومة العصر في عفرين، ستحمل العشرات من بعدها اسمها وتستكمل رسالتها في تحقيق الأمن والسلام والعدلة والديمقراطية ومكافحة الإرهاب والتطرف وتجفيف منابعه.

المجتمع الدولي اليوم مرة أخرى يكشف النقاب عن وجهه القبيح بصمته المطبق حيال إجرام الدولة التركية باستهداف من حموهم من الإرهاب والتطرف ومازالوا. هؤلاء هم صمام الأمان لحماية العالم من الإرهاب والتطرف. واليوم أمام مسمع ومرأى المجتمع الدولي يتعرضن لعمل إجرامي إرهابي جبان من قبل دولة الاحتلال التركي.

قديسات وطني نمن قريرات العين. الشهيدة "جيان" وتعني بالعربية "الحياة"، مثلما منحتِ الحياة بشهادتك ونضالك للملايين حول العالم في مقارعة الإرهاب والتطرف، سيبقى اسمك خالداً في وجدان الإنسانية.

أما أنت جميلتي "روج" وتعني بالعربيـــة "الضيـــاء"، مثلما انرت درب المـلايين من النساء حول العالم وأزحت ستار الظلام سيبقى ضياء فكرك وروحك يشع في سماء وطني وفي قلب دعاة الإنسانية.

وأخيراً عزيزتي "بارين" مثلما كنت تنثرين عبق المحبة والتضحية والوفاء للجميع دون استثناء ستبقين خالدة في الوجدان ❑❑

مجتمع المعرفة في الوطن العربي في ظل العولمة

د. غازي الصوراني
فلسطين

❑ تمهيد:

المعرفة التي أدعو الى امتلاكها ووعيها، هي المعرفة المشغولة بالعلم والاستكشاف المرتكز الى العقل والتجربة، وتخليص البحث المعرفي من سلطة السلف وقدسية الأفكار، كمدخل لابد منه لتحرير الواقع العربي من حالة التخلف والتبعية والخضوع، وتحرير فكرنا العربي من حالة الجمود والانحطـــــاط، ذلك ان اعتمـــاد العقل كـــأداة وحيدة للتحليل، والعقلانية كمفهوم يستند على المنهج العلمي الجدلي، سيدفع بفكرنا العربي – ولا أقول عقلنا العربي – صوب الدخول في منظومة المفاهيم العقلانية التي تقوم على أن للعقل دوراً أولياً ومركزياً في تحليل الواقع، والتحكم في سيرورة حركته، وهو أمر غير ممكن – كما يقول هيجل – ما لم يصبح الواقع في حد ذاته معقولاً، أو مدركاً، عبر الممارسة العملية في سياق تطبيقنا لقوانين ومقولات الجدل، التي لا تكمن أهميتها في كونها قوانين لتطور الواقع فحسب وإنما هي أيضاً، قوانين لتطور التفكير والمعرفة. خاصة في عصرنا الراهن، عصر العولمة، الذي تتهاوى فيه كثير من النظم والأفكار والقواعد المعرفية السائدة ،لحساب الثلاثية التالية: مجتمع المعلومات، مجتمع المعرفة كأهم مورد للتنمية الاقتصادية والاجتماعية، مجتمع التعلم والذكاء البشري والاصطناعي، فالمعرفة في هذا العصر "هي حصيلة هذا الامتزاج الخفي بين المعلومات والخبرة والمدركات الحسية والقدرة على الحكم، لتوليد معرفة جديدة قابلة بدورها للتطور والارتقاء.

إذن، نحن أمام مفهوم جديد للمعرفة، زاخر بالحركة الصاعدة صوب المستقبل بلا حدود أو معوقات، اعتماداً على ثورة المعلومات والاتصالات وعلوم الكمبيوتر والتكنترون، والميكروبيولوجي، والهندسة الوراثية، الى جانب العلوم الحديثة في اللغة، والاجتماع، والانثروبولوجيا والتاريخ والجغرافيا البشرية والاقتصاد، بحيث أصبح مفهوم المعرفة المعاصر شاملاً لكل العلوم الطبيعية والإنسانية في علاقة عضوية لا انفصام فيها من ناحية، ومحصوراً في كوكبنا - إلى حد بعيد - في بلدان المركز الرأسمالي القادرة وحدها على إنتاج وتصدير العلوم والمعارف من ناحية أخرى، بحيث بات من غير الممكن تطبيق هذا المفهوم على أوضاعنا العربية وبلدان الجنوب أو العالم الثالث عموماً دون امتلاك جزءاً هاما من مقوماته والتفاعل مع معطياته، واستخدام آلياته وقواعده، كمدخل وحيد لجسر الهوة المعرفية النوعية والواسعة بيننا وبين تلك البلدان، آخذين بعين الاعتبار ان المعرفة والتغيير العملي هما جانبان مشروطان، يتوقف كل منهما على الآخر بشكل تبادلي لعملية تاريخية واحدة، فالتفكير وحده – على أهميته وضرورته – لا يخلق إلا الأفكار الذاتية، ولا يمكن حل هذه الإشكالية إلا بالممارسة الاجتماعية، التي هي شرط التفكير وبلوغ الحقيقة الموضوعية (النسبية دوما) كهدف أساس من أهداف المعرفة لا يمكن بلوغه في واقعنا العربي – علاوة على التشخيص والتحليل واستخدام البيانات والمعلومات الدالة - الا عبر امتلاكنا لرؤى ومفاهيم حداثية، تنويرية عقلانية علمانية ديمقراطية وغير ملتبسة، وبرامج واضحة لتجاوز اوضاع التبعية والتخلف والاستغلال والاستبداد او الأزمة البنيوية الشاملة في هذا الواقع وتغييره عبر الممارسة، كأساس للمعرفة الإنسانية العربية ومقياساً لصحتها، وبدون هذا الامتلاك المعرفي يستحيل تحقيق أي خطوة نوعية صوب انهاء انظمة الاستبداد والتخلف والاستغلال وتصفية الطبقات الراسمالية الرثة الطفيلية والكومبرادورية وتحقيق اهداف الثورة الشعبية الديمقراطية بافاقها الاشتراكية.[1]

تعريف المعرفة[2]:

من الصعب تعريف المعرفة أو وضع لها مفهوم عمومي، فهي، فعلاً، أحدث وأفضل عوامل الانتاج الذي يعترف به كمورد أساسي لإنشاء الثروة في الاقتصاد، وبالتالي أصبح للمعرفة أولوية خاصة على كل عوامل الانتاج الأخرى، وهي العامل الأكثر اهمية في الوقت الراهن والمستقبل[3].

ويمكن تعريف المعرفة بأنها رأس مال فكري، أي مجموعة من القدرات المتميزة يتمتع بها عدد محدود من الأفراد العاملين في المنظمة، تمكنهم من تقديم إسهامات فكرية تمكن المنظمة من زيادة إنتاجياتها وتحقيق مستويات أداء عالية مقارنة بالمنظمات المماثلة. كما أن رأس المال الفكري هو قوة ذهنية تمثل تشكيلة من المعرفة والمعلومات والخواص الفكرية والخبرة، التي تمثل المواد الأولية الرئيسية لاقتصاد اليوم[4].
ومنه نستخلص:
- ان المعرفة هي رأس المال الفكري الذي يعتبر في الاقتصاد الجديد أكثر أهمية.
- المعرفة هي العامل الأساسي في اقتصاد الدول المتقدمة؛ اقتصاد الخدمات عالية التخصص وأنيقة المعرفة.
- أن المعرفة مورد يرتفع دائماً، لا نهائي، يزداد بشكل دائم.
- المعرفة هي العامل الأساسي في صناعة التكنولوجيا العالية وتكنولوجيا المعلومات.

لذلك أصبح، في عصر تدويل النشاط الاقتصادي ومتغيرات العولمة، للمعرفة أهمية كبيرة. ولتأكيد قدم المعرفة، وإدراك أهميتها في السلوك البشري، يمكن العودة إلى التقسيم العشري للمعرفة الذي قدمه "ميلفيل ديوي" عام 1873، والمتمثل في:
المعرفة العامة من الفلسفة وعلم النفس، من العلوم الدينية، فالعلوم الاجتماعية بما في ذلك العلوم الاقتصادية، اللغات الإنسانية، العلوم الطبية والرياضيات، العلوم التطبيقية، الفنون بشتى أشكالها، الآداب والبلاغة، الجغرافيا والتاريخ.

ولكن الجديد اليوم، هو حجم تأثير المعرفة على الحياة الاقتصادية والاجتماعية وعلى نمط حياة الإنسان عموماً. ومن هنا يمكن القول، إن جوهر مجتمع المعرفة، هو العقل النقدي[5]. ويقتضي ذلك بالضرورة ثورة في مجال التعليم للخلاص من "العقل الاتباعي" الذي لم يدرب على النقد والحوار، ومن ناحية أخرى ضرورة توافر السياق الديمقراطي الذي يسمح بحرية التفكير وحرية التعبير وحرية النشر، وبوجود مجالات مفتوحة للحوار بكل أنماطه.

المعرفة في الوطن العربي:

لعل الحديث عن مفهوم محدد للمعرفة ، أمر يفتقر للسهولة، بمثل ما يفتقر إلى الاتفاق بين أصحاب الفكر على تعريف محدد له ، نظراً لأن المعرفة عملية جدلية معقدة تحدث بأشكال مختلفة، ولها مراحلها ودرجاتها في التطور، وتتضمن مساهمة قوى الإنسان وقدراته المختلفة عبر التجربة والممارسة المرتبطة بطبيعة وشكل النمط الاجتماعي – الاقتصادي من التطور بين هذه المجموعة البشرية أو تلك، وبالتالي نحن أمام مفهوم متعدد المضامين والدلالات، المرتبطة بتطور حركة الواقع والفكر والمسار التاريخي للبشرية.

فإذا كنا نتفق على أن المعرفة هي ثمرة أولية من ثمار الفكر باعتباره وعياً قبلياً مرتبطاً بالواقع المعيش وعاكساً له، فليس معنى ذلك تطابق هذه المعرفة بالواقع مع شمولية الفكر وفضاءه الواسع، إذ أن حجم المعرفة ودورها يتحددان حسب نسبة أو درجة تفاعلهما مع شمولية الفكر وحركة تطوره التاريخي، وهو تفاعل مرهون بدرجة تطور وحركة الواقع المجتمعي في هذه المرحلة التاريخية أو تلك، ما يؤكد على ذلك، أن تاريخ البشر ونشوء المعرفة وتطورها، ليسا سوى سيرورة بدأت مع الإنسان الذي تحرك بدوره – على خلاف الحيوانات الأخرى – بقوة العقل والإدراك عبر تدرج وعيه ومعرفته منذ مرحلة النشوء، فالصيد والرعي والزراعة، الى مرحلة الحرفة والتجارة والصناعة وصولاً الى المرحلة الحديثة أو الثورة في العلم والمعلومات.

على أن تطور المعرفة وتشعبها الذي "نبع من تربة الاقتصاد والحاجات المادية الأساسية، لا يعني بقاء المعرفة مرتبطة بهذه التربة بصورة مباشرة، ذلك أنه مع تطور وسائل وقوى الإنتاج، يتشعب العمل ويتطور تقسيم العمل الى شبكة معقدة متعددة الأبعاد والجوانب، فيبدأ التخصص، بما في ذلك التخصص في إنتاج المعرفة التي تأخذ عند ذلك خطاً تطورياً خاصاً بها، ومستقلاً نسبياً عن تربة الإنتاج المادي"[6] دون انفصام مع

الواقع الذي يؤثر عليها وتتأثر به ضمن علاقة جدلية، ترتبط مخرجاتها أو نتائجها السلبية أو الإيجابية أو أنواعها، وفق طبيعة ومسار المصالح الطبقية الحاكمة أو السائدة في هذه المرحلة أو تلك، فهناك المعرفة الأولية أو الأولى التي تتشكل في أذهاننا عن طريق الحواس التي تقودنا الى معرفة وجود الشيء والاستدلال عليه كوجود مادي أو محسوس، وهناك المعرفة التي لا تكتفي بالمحسوس أو بالشكل أو المظهر، بل تحاول أيضاً أن تدرك الأشياء إدراكاً عقلانياً يُمكّن العارفين بها من فهم الأسباب التي تحول دون التطور والتقدم في واقعهم، وصولاً إلى معرفة السبل الكفيلة بتجاوز هذا الواقع، وهنا تتجلى الأيدلوجيا كمفهوم جراحي يستطيع الناس من خلالها، أن يعوا حقيقة الصراع وأن يشتركوا في مباشرته "في حال ممارسة دوره النقيض حيث يقوم بتشريح عمومية التصورات والأحكام المعرفية في الذهن البشري، ارتباطا بما يمثله من تجسيد لمصالح أو شرائح طبقية واسعة في ظروف محددة، دون أن يعني ذلك انفصام الأيدلوجيا عن المعرفة، بل بالتواصل والتفاعل معها من داخل إطارها، عبر الممارسة العملية في سياق تطبيقنا لقوانين ومقولات الجدل ، التي لا تكمن أهميّتها في كونها قوانين لتطور الواقع فحسب وإنما هي أيضاً، قوانين لتطور التفكير والمعرفة. خاصة في عصرنا الراهن، عصر العولمة، الذي تتهاوى فيه كثير من النظم والأفكار والقواعد المعرفية السائدة، لحساب "رباعية البيانات والمعلومات والمعارف والحكمة" فكما أفرزت تكنولوجيا الصناعة مجتمعاً مختلفاً عن مجتمع الزراعة، كذلك أفرزت تكنولوجيا المعلومات مجتمعاً مختلفاً عن مجتمع الصناعة، تمثله الثلاثية التالية: مجتمع المعلومات، مجتمع المعرفة كأهم مورد للتنمية الاقتصادية والاجتماعية، مجتمع التعلم والذكاء البشري والاصطناعي"[7] فالمعرفة في هذا العصر "هي حصيلة هذا الامتزاج الخفي بين المعلومات والخبرة والمدركات الحسية والقدرة على الحكم، لتوليد معرفة جديدة، وصولاً الى الحكمة أو ذروة الهرم المعرفي، واستخدامها في تقطير المعرفة إلى حكمة صافية، "وتجاوز" المتاح من المعرفة، وزعزعة الراسخ، من أجل فتح آفاق معرفية جديدة لترشيد استغلال الموارد واستخدام الوسائل والموازنة بين تحقيق الغايات وكلفة الوصول إليها"[8] في عالم أصبحت البلدان المتقدمة والمهيمنة فيه، تتعاطى مع مفهوم العالَم الإدراكي كنظير معرفي للعالَم الفيزيائي (المادي)، فكما حدد أينشتين للفيزيائي معادلته الشهيرة التي تربط بين الكتلة والطاقة، يقترح بروكز، في المقابل، ثنائية "المعلومات – المعرفة" كأساس للعالم الإدراكي، ومحركاً رئيسياً للاقتصاد الحديث[9].

إذن ، نحن أمام مفهوم جديد للمعرفة، زاخر بالحركة الصاعدة صوب المستقبل بلا حدود أو معوقات، اعتماداً على ثورة المعلومات والاتصالات وعلوم الكمبيوتر والتكنترون، والميكروبيولوجي، والهندسة الوراثية، الى جانب العلوم الحديثة في اللغة، والاجتماع، والانثروبولوجيا والتاريخ والجغرافيا البشرية والاقتصاد، التي تأثرت بالتطورات العلمية المذهلة في التكنولوجيا المعاصرة، خاصة الكومبيوتر وأجهزة الموبايل وبرامجها التي جعلت من هذا الكوكب قرية صغيرة تتجلى في توفير التواصل والحوار بالصوت والصورة من كل بقاع العالم على مدار الساعة، مما أدى إلى ولادة علوم الكترونية مختصة في أمن المعلومات والقرصنة والحروب الالكترونية المنتشرة اليوم بين الدول المتقدمة التي بدأ بعضها إلغاء استخدام جوازات السفر اعتماداً على دقة المعلومات فيما يتعلق ببصمة العين أو يميز ذلك من الأساليب الالكترونية الدالة على هذا الشخص أو ذاك، وكل هذه الاكتشافات تدل على حجم الثورة العلمية الالكترونية المعرفية المتواصلة بلا حدود في البلدان المتقدمة، مع بقاء البلدان المتخلفة غارقة في تراثها المعرفي الغيبي الذي يحول دون تطورها أو نهوضها بحيث أصبح مفهوم المعرفة المعاصر مرتبطاً أشد الارتباط بالثورة التكنولوجية، شاملاً لكل العلوم الطبيعية والإنسانية او التكنولوجيا الحديثة في علاقة عضوية لا انفصام فيها من ناحية، ومحصوراً في كوكبنا - إلى حد بعيد - في بلدان المركز الرأسمالي القادرة وحدها على إنتاج وتصدير العلوم والمعارف من ناحية أخرى، بحيث بات من غير الممكن تطبيق هذا المفهوم على أوضاعنا العربية وبلدان الجنوب أو العالم الثالث عموماً دون امتلاك جزءاً هاما من مقوماته والتفاعل مع معطياته، واستخدام آلياته وقواعده، كمدخل وحيد لجسر الهوة المعرفية، بيننا وبين تلك البلدان، آخذين بعين الاعتبار، أن لكل معرفة خصوصيتها المرتبطة والمحددة من حيث شكلها وجوهرها، بحركة صعود أو بطء آليات التطور الداخلي في هذا المجتمع أو ذاك من ناحية، وبالعوامل الخارجية المؤثرة في ذلك التطور من ناحية ثانية، فالمعرفة عملية انعكاس للواقع وعرضه في الفكر الإنساني المرتبط بهذا الواقع مكانياً وزمانياً من ناحية، ومرتبط بالممارسة العملية التغييرية في الأنشطة الإنتاجية والمجتمعية بكل أبعادها من ناحية أخرى، إذ ان المعرفة والتغيير العملي هما جانبان مشروطان، يتوقف كل منهما على الآخر بشكل تبادلي لعملية تاريخية واحدة"[10] فالتفكير وحده – على أهميته وضرورته – لا يخلق إلا الأفكار الذاتية، ولا يمكن حل هذه الإشكالية إلا بالممارسة الاجتماعية، التي هي شرط التفكير وبلوغ الحقيقة الموضوعية كهدف أساس من أهداف المعرفة لا يمكن بلوغه في واقعنا العربي عبر التشخيص أو التحليل أو استخدام البيانات والمعلومات الدالة على أوجه القصور فيه، وإنما عبر امتلاكنا لرؤى ومفاهيم غير ملتبسة، وبرامج واضحة لتجاوز الأزمة البنيوية الشاملة في هذا الواقع وتغييره عبر الممارسة، كأساس للمعرفة الإنسانية العربية ومقياساً لصحتها، إذ أن المعرفة – كما يرى ماركس بحق- تنشأ أصلاً كانعكاس لحاجات الممارسة العملية للإنسان، من أجل سد وتأمين هذه الحاجات بمختلف أشكالها وأنواعها المادية والمعنوية.

فإلى أي مدى استجابت ومارست مجتمعاتنا العربية في تاريخها القديم والحديث والمعاصر، عملية الربط بين المعرفة والممارسة كشرط لتقدمها؟

الحقيقة انه باستثناء الومضات أو اللحظات العقلانية العربية في التاريخ العربي الاسلامي على يد المعتزله وابن رشد، والتي انقطعت منذ القرن الثالث عشر، واستمرت حالة الانقطاع المعرفي عموماً حتى نهاية القرن التاسع عشر والعقود الاولى من القرن العشرين ثم انقطعت وعادت الى التواصل والتجدد في سيتينياته في الحقبة الناصرية التي انتهت بوفاة مؤسسها، ظلت الفرضيات الغيبية هي الحاكمة على صعيد الفكر العربي كما سنوضح لاحقاً، بمثل ما استمرت المجتمعات العربية محكومة في تطورها الاقتصادي – الاجتماعي للنمط الريعي المركزي، والتجاري في التاريخ القديم، والى نظام التبعية والتخلف في التاريخ الحديث، بما أدى الى هذا الانفصام الممتد الى اليوم بين المعرفة والممارسة، والذي شكل عقبةً في وجه تفتح الرؤية العقلانية العربية وأبقاها أسيرة لمناخ التخلف ومظاهره، التي تتبدى في أن "العقل السياسي العربي محكوم في ماضيه وحاضره – كما يقول الجابري –" بمحددات ثلاثة هي: القبيلة والغنيمة والعقيدة، أي بعلاقات سياسية معينة تتمثل في القبيلة، وفي نمط إنتاجي معين هو النمط الريعي، الذي يرمز إليه بالغنيمة (الدخل غير الإنتاجي)، وسيادة العقيدة الدينية، ويرى أنه لا سبيل الى تحقيق متطلبات النهضة والتقدم بغير نفي هذه المحددات الثلاثة نفياً تاريخياً وإحلال بدائل أخرى معاصرة لها"[11]. ولهذا يقول محمود أمين العالم "إن قضية تجديد العقل السياسي العربي اليوم مطالبة بأن، تحول "القبيلة" في مجتمعنا الى تنظيم مدني سياسي اجتماعي، وتحول "الغنيمة" أو الاقتصاد الريعي الى اقتصاد إنتاجي، يمهد لقيام وحدة اقتصادية بين الأقطار العربية، كفيلة بإرساء الأساس الضروري لتنمية عربية مستقلة وتحويل العقيدة الى مجرد رأي، أي التحرر من سلطة عقل الطائفة والعقل الدوجمائي، دينياً كان أو علمانياً، وبالتالي التعامل بعقل اجتهادي نقدي"[12]، بما يفرض علينا إعادة النظر في بنية ومكونات الثقافة العربية، التي باتت كما يقول الجابري "في حاجة ماسة وملحة الى إعادة كتابة تاريخها، الذي ما زال مجرد تكرار واجترار لنفس" التاريخ "الذي كتبه أجدادنا "[13] وذلك بهدف النظر الى إجزاء تاريخنا الثقافي الذي تم فيه تصنيف العلوم الإسلامية الى مجموعات:

علوم البيان: من نحو وفقه وبلاغه،

وعلوم العرفان: من تصوف وفكر شيعي وفلسفة إسماعيلية وتفسير باطني للقرآن، وكيمياء وتطبيب وسحر وتنجيم، وأخيراً علوم البرهان من منطق ورياضيات وإلهيات، بل وميتافيزيقا"[14].

وفي كل الأحوال فإن "أي تحليل للفكر العربي الإسلامي، سواء كان من منظور بنيوي أو من منظور تاريخاني، سيظل ناقصاً وستكون نتائجه مضللة، إذا لم يأخذ في حسابه دور السياسة في توجيه هذا الفكر وتحديد مساره ومتعرجاته"[15]، وستظل أيضاً الأسئلة: "لماذا تأخر العرب وتقدم غيرهم؟ أو لماذا لم تتطور الأوضاع الاجتماعية الاقتصادية العربية في "القرون الوسطى" الى نظام رأسمالي؟ ولماذا لم تتمكن النهضة العربية في "القرون الوسطى" من شق طريقها نحو التقدم المطرد؟

هذه الأسئلة ستظل ناقصة ومحدودة الآفاق، ما لم تطرح على الصعيد الأبيستمولوجي، أو ما لم تتجه مباشرة الى العقل العربي ذاته، ذلك أن "العرب و المسلمين" إنما بدأوا يتأخرون حينما بدأ العقل عندهم يقدم استقالته، حينما أخذوا يلتمسون المشروعية الدينية لهذه الاستقالة، في حين بدأ الأوروبيون يتقدمون حينما بدأ العقل عندهم يستيقظ ويسائل نفسه، فالرأسمالية هي بنت العقلانية"[16]، والحال، أنه منذ القرن الخامس الهجري: "دخل الفكر الإسلامي كما يقول نصر حامد أبو زيد، في مرحلة الركود بحكم الظروف الداخلية والخارجية التي أدت الى الجمود الاجتماعي والسياسي"[17] وتقلصت المساحة النقدية منذ ذلك القرن، "عندما راح الإعلان الرسمي للمذاهب يفرض بالتدريج ممارسة "أرثوذكسية" للفكر الديني بعيداً عن العلوم الدنيوية، حيث ظلت الظاهرة الإسلامية – كما يقول محمد أركون – الى الآن عموماً شيئاً لا فكر فيه داخل الفكر العربي والإسلامي.

وبقيت المسائل اللاهوتية الكبرى التي نوقشت في القرنين الثاني والرابع الهجريين على حالها تقريباً، كما تركها الأشعري بالنسبة للسنيين، وابن بابوية وأبو جعفر الطوسي بالنسبة للشيعيين"[18] واستمر هذا الحال حتى نهاية القرن التاسع عشر، وظهور ما عرف بحركة الإصلاح الديني الحديث، التي أطلقها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ولم تفلح كما يقول الجابري في "بلورة مشروع نهضوي تتجاوز به الإشكالية التي تطرحها في التجربة الحضارية العربية منذ اندلاع النزاع بين علي ومعاوية أو العلاقة بين الدين والسياسة "[19] كما لم تفلح الاتجاهات العلمانية ، المادية والعقلانية التي ظهرت في تلك المرحلة وبداية القرن الماضي ، في بلورة مشروعها النهضوي عبر اتجاهاتها

الفكرية المتعددة، المادية والتنويرية ومن أبرز مثقفي هذا التيار شبلي شميل، وفرح أنطون وسلامة موسى وعلي عبد الرازق وطه حسين ولطفي السيد.

والسؤال الآن: كيف وصل العرب في العصر الحديث الى هذه الحال، وأين يكمن الخلل؟

يرى جورج طرابيشي، أن الخطر في هذا الزمن القطري، ليس تراجع فكرة الوحدة العربية بحد ذاته، حيث أن مثل هذا التراجع قد يكون مؤقتاً، وإنما تراجع فكرة القومية بالذات"[20]، "أما برهان غليون فيري أن إخفاق الدولة العربية الحديثة، يعود الى إنها لم تنشأ في حجر الأمة وتعبيرا عنها، وإنما نشأت من أنقاضها وفي مواجهتها، ولم تنجح في التحول الى دولة – أمة، والسبب الرئيس لهذا الأخفاق في تصوره، يعود الى مفهوم الدول التحديثية التي فرضت نفسها على المجتمع وأدخلت عناصر الحداثة اليه، لكنها قادت باسم التقدم والعقلانية والحرية والوطنية الى عكس أهدافها، الى نوع خاص من الحداثة هو "ما تحت الحداثة أو حثالة الحداثة" [21].

أما د. هشام شرابي ، فيرى أن "ما جرى في المائة سنة الأخيرة من الحياة العربية التي سادتها" الأبوية " أفضى الى تحديث القديم دون تغييره جذرياً" [22]، وفي موقفه من هذه المسألة ارتباطاً بالتيار الإسلامي، يرى د. ماهر الشريف –بحق- أن تيار الإسلام السياسي المعاصر الذي برز مع تشكل حركة الأخوان المسلمين، "لا يمثل أبداً، وخلافاً لما يراه الجابري، امتداداً لتيار الإصلاح الديني الذي أطلقه محمد عبده في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بل يعبر – هذا الإسلام السياسي المعاصر – في منطلقاته وتوجهاته وأهدافه عن قطيعة مع تيار الإصلاح الديني"[23]. ويضيف د. الشريف بقوله "يظهر، بين الباحثين والمفكرين العرب ما يشبه الإجماع على أن هذه الجماعات لا تقدم حلولاً واقعية للأزمة العامة التي تواجهها المجتمعات العربية حيث يرى د. هشام شرابي أن الأصولية الإسلامية لن تقوى على توفير علاج ناجح للفوضى التي تتحكم بالمجتمعات العربية، وذلك لأنها "مثالية" ستكون حلولها بالضرورة سلطوية ومرتكزة الى عقيدة وسبل جبرية مطلقة، وستلجأ الى فرض نظام أبوي سلطوي يقوم على أيدلوجية غيبية دينية. أما حكيم بن حمودة ففي رأيه أن هذه الجماعات تبدو قوة احتجاج سلبية من دون أن تكون قادرة على بلورة مشروع مجتمعي بديل"[24].

وعن موقف د. سمير أمين من الإسلام السياسي، يقول د. ماهر الشريف "أن سمير أمين يعتبر أن حركات الإسلام السياسي، تجسد اليوم اتجاه رفضي سلبي لا يقدم بديلاً إيجابياً على مستوى التحديات العالمية، حيث يقوم المشروع الذي تتبناه على ثلاثة أعمدة هي أولاً: إلغاء الديمقراطية وثانياً: إحلال خطاب أيدلوجي شمولي محلها (ينتهي الى) خضوع شكلي لطقوس دينية لا غير وثالثاً: قبول الانفتاح الكومبرادوري الشامل على الصعيد الاقتصادي[25].

على أي حال، إن استمرار هيمنة الفكر الديني السلفي المنغلق عبر تيارات الإسلام السياسي، على المستوى المعرفي عموماً، وفي الوعي العفوي الشعبي على وجه الخصوص، وفي مساحة كبيرة من الإنتاج الثقافي في الوطن العربي، يعني استمرار فعل آليات التخلف المعرفي كانعكاس للتخلف المجتمعي في واقعنا العربي، إضافة الى استمرار حالة التبعية التي تعني اننا سنظل (كمجتمعات عربية) - الى درجة كبيرة – محكومين في إنتاجنا المعرفي بكل جوانبه، الى الفكر الرجعي والتراث الغيبي المرتبط بأوضاع التخلف الاجتماعي/ الاقتصادي، وبالتالي سنظل ايضاً محكومين إلى الفكر الرأسمالي الإمبريالي المعولم والى العلاقات الرأسمالية المشوهه السائدة في بلادنا، في مقابل "ندرة الممارسة النظرية الفلسفية في حقل الإنتاج الثقافي، وهي ممارسة نظرية لا تمتلك حضوراً واسعاً في محيط الثقافة العربية المعاصرة عموماً، وفي أوساط الجماهير الشعبية الفقيرة خصوصاً، وذلك لأسباب موضوعية مرتبطة بالتخلف التاريخي والتطور المشوه من ناحية ولأسباب ذاتية تعود إلى قصور وعجز أحزاب وفصائل اليسار العربي في توعية تلك الجماهير وتأطيرها الحزبي والنقابي من ناحية ثانية.

وفي هذا الجانب نشير إلى دور المثقفين والمفكرين العرب المعاصرين، الذين استطاعوا إضاءة وتحليل ونقد جوانب هامة من الثقافة العربية السائدة، واستطاعوا أن يقدموا أفكاراً إبداعية في دعم الرؤية العقلانية العلمانية ونقدهم للتراث في سياق مفاهيم الحرية والديمقراطية والتقدم، ولكن العقبات التي تحول دون انتقال هذه الأفكار من طابعها النخبوي الى الطابع الطليعي الأوسع، مازالت قائمة.

ولعل من أخطر ما يعوق الحوار في فكرنا العربي المعاصر، كما يقول محمود أمين العالم "هذا الالتباس والتداخل وعدم التحديد في كثير من المفاهيم والمصطلحات المتداولة"[26] بين المدارس الفكرية بمختلف منطلقاتها، خاصة على صعيد المدارس الليبرالية والوضعية والقومية والماركسية حيث أن هذه الأخيرة أصابها حالة من التفكك والضبابية، على صعيد الفكر والتنظيم، لم تشهدها في كل تاريخها، وهذه الظاهرة لا تتوقف عند الالتباس والتداخل والتفكك فحسب، وإنما تشير أيضاً الى عجز الواقع العربي وهزاله الشديد في عملية إنتاج المعرفة من جهة، وفي هذا التداخل المربك، والإكراهي، بين المحددات الداخلية لتطور مجتمعاتنا العربية المحكومة بآليات التخلف والتبعية والخضوع، وبين المحددات الخارجية المتمثلة في طغيان مظاهر ومفاهيم السيطرة والعدوان الرأسمالي الأمريكي / الصهيوني المعولم من جهة ثانية، وهي مظاهر ومفاهيم تنطوي في معظمها تحت غطاء ما يسمى بـ"فلسفة ما بعد الحداثة" التي تأثرت بما يسميه المفك ر الأمريكي"ألفين توفلر" "بالموجة الثالثة – بعد موجتي الزراعة والصناعة – والتي تمثل صدمة المستقبل حيث تحتل فيها المعرفة العلمية مكانة هامة تفوق مكانة إنتاج السلع، مما خلق ظاهرة احتكار المعلومات وتوظيفها والترويج لثقافة تكنولوجيا الخدمات وتصديرها الى بلدان الأطراف"[27] بما يوحي لهذه البلدان – وفي المقدمة منها بلدان الوطن العربي – بأن النموذج الغربي الرأسمالي هو الطريق الوحيد للتقدم والتنمية، عبر معطيات الديمقراطية الليبرالية أو ديمقراطية العولمة، التي تعبر –بصورة رئيسية- عن مصالح الطبقات الكومبرادورية والبيروقراطية الفاسدة، بما ينسجم مع جوهرها ودورها الحقيقي الهادف الى تكريس حالة التبعية والتخلف والخضوع عبر مزيد من أشكال الاحتواء، بل والعدوان العسكري المباشر في ما يسميه سمير أمين "عولمة السلاح"، وهي نزعة تتوافق أيديولوجياً مع فلسفة نيتشة أو الفلسفة النازية، التي تمجد إرادة القوة، ما يؤكد على ذلك طروحات الفلاسفة والمفكرين من أصحاب اتجاه "ما بعد الحداثة" لعل أبرزهم ميشيل فوكو وجاك دريدا وجيل دولوز وفوكوياما وتوفلر وهانتنجتون وبرنارد لويس، وهو اتجاه يقوم على رفض فلسفة التنوير العقلاني، ورفض مفهوم التطور، باسم نهاية التاريخ، وصراع الحضارات، وهي مفاهيم تجسد وتمجد فلسفة القوة كما عبر عنها "فوكو" بقوله "إن الحقيقة ليست معرفة أو ثمرة معرفة موضوعية، بل هي علاقة قوة، فالحقيقة هي السلطة والسلطة هي الحقيقة "[28].

على أي حال، لم يكن ممكناً لهذه الأفكار والمفاهيم المعبرة عن نزعة "ما بعد الحداثة" أن تسود وتتزعرع في المنظومة الفكرية لبلدان النظام الرأسمالي، لولا تحرر الرأسمالية العالمية من كل قيود التوسع اللامحدود، الذي وفر بدوره فضاء واسعاً للتطور الصناعي التكنولوجي أو ما يطلق عليه التطور التكنتروني الذي أصبح سمة هذا العصر مع ثورة المعلومات والاتصالات، الأمر الذي استوجب من وجهة نظر الطور الجديد للرأسمالية، أو العولمة، تطوير وإنتاج النظم والمفاهيم المعرفية، السياسية والاقتصادية في إطار فلسفة القوة والسلطة التي تبرر لنظام العولمة الأمريكي، ممارساته العدوانية من أجل إحكام سيطرته على ثروات ومقدرات شعوبنا وشعوب العالم الثالث، حيث باتت هذه الشعوب لا تعرف لها عدواً واضحاً سوى رأسمال القلة الاحتكارية المعولم والامبريالي المسيطر، الذي أدت ممارساته البشعة، وتوسعه العدواني اللامحدود في كل أرجاء كوكبنا، إلى تعميق الانقسام"الحاد، السياسي والاقتصادي والمعرفي بين بلدان رأس المال المعولم"، وبين بلدان المحيط أو الأطراف بصورة غير مسبوقة، عبر العديد من المؤشرات التي لا تنحصر في استمرار تراكم مظاهر التبعية والتخلف في البلدان الفقيرة فحسب، بل وفي استفحال مظاهر الفقر والبطالة وانخفاض معدلات النمو، وتراكم الديون، والانخفاض الحاد في مستويات المعيشة، الى جانب اشعال الفتن الطائفية والإثنية والاقتتال الداخلي، الهادفة الى تفكيك هذه البلدان وإعادة تشكيلها بما يتوافق مع الطبيعة الاستغلالية لنظام العولمة وبرامجه وسياساته باسم "التكيف والإصلاح" والخصخصة وبيع مؤسسات القطاع العام، والديموقراطية الليبرالية والحكم الصالح وفق محددات وشروط أدوات العولمة وركائزها الثلاث: البنك والصندوق الدوليين، ومنظمة التجارة العالمية، وهي محددات لم تنتج في بلادنا وبلدان العالم الثالث عموماً – سوى حصاداً مراً وضاراً تجرعته شعوب هذه البلدان تحت تأثير أوهام الخصخصة والانفتاح والتنمية المستدامة والاقتصاد الحر ورأس المال الإنساني، والنمو الاقتصادي المزعوم الذي أوقع اقتصاد ومجتمعات هذه الشعوب بسبب التغيرات والشروط التي فرضتها العولمة الاقتصادية، في مآزق وقيود إضافية تستهدف كما يقول د. إبراهيم العيسوي[29] "المزيد من تقليص سلطة الدولة الوطنية وانعكاس قدرتها على رسم السياسات الاقتصادية الوطنية في إطار التحرير المتزايد للاقتصاديات والأسواق الوطنية، والتحول إلى اقتصاد السوق، والتسارع في معدلات النمو الضخم في حركات رؤوس الأموال عبر الحدود الوطنية بهدف اقتناص فرص الربح السريع من خلال المضاربة تحت مظلة الاستثمار، وبروز دور الشركات المتعدية الجنسية، وانتشار أنماط الاستهلاك الشعبي والثقافة الشعبية السائدة في دول الغرب الرأسمالية ".

إن هذه السياسات، أو المآزق والقيود التي فرضها نظام العولمة، لا تكمن مخاطرها في حجم استجابة هذا النظام العربي أو ذاك لشروطها والتكيف مع نتائجها الضارة فحسب، بل تكمن أيضا في المفاهيم المعرفية (السياسية والاقتصادية والمجتمعية) التي يتحدد بموجبها الفعل التطبيقي لتلك السياسات والقيود العملية التي يفرضها نظام العولمة على بلادنا، ليس فقط عبر الأنظمة والحكومات فحسب، بل أيضا عبر المنظمات غير الحكومية NGO s الممولة من العواصم الغربية، أو مؤسسات الأمم المتحدة التي باتت اليوم محكـومة في مساحة كبيرة من أدائـــها لشروط وسياسات نظام العولمة الذي تقوده

وتتحكم في مساره – الآن – الولايات المتحدة الامريكية.

على أنه من الإنصاف الاشارة هنا الى دور بعض العاملين في هذه المنظمات الذين لا يتوافقون تماما مع تلك السياسات، بل ويتعارضون معها أحيانا، فيما يتعلق بالشأن العربي، على الصعيدين القطري والقومي من ناحيه، وتأكيدا لحرص هذا البعض في انتشال واقعنا العربي من حالته الراكده الى حالة أرقى من التطور الاقتصادي والمجتمعي والمعرفي من ناحية ثانيه، ولكن بأدوات أو مفاهيم معرفية، سياسية واقتصادية ليبرالية، لا تتناقض أيديولوجيا مع المفاهيم المعرفية لنظام العولمة الرأسمالي، دون أن يعني ذلك تماهيا مع ذلك النظام أو قبولا بممارساته العدوانية ضد شعوبنا ومقدراتها، ويندرج في هذا الإطار معظم التقارير والدراسات الصادرة عن هذه المنظمات، وكذلك الامر بالنسبة لتقارير التنمية العربية أو القطرية، وتقارير منظمات حقوق الإنسان والمرأة والشباب إلخ، التي لا يمكن التقليل من شأنها مع حرصنا على القراءة المعمقة لطروحاتها ومفاهيمها، حيث يمكن تبين واكتشاف الكثير من المفاهيم والصياغات الليبرالية الهابطة التي تتذرع بالديمقراطية وحقوق الانسان بعيداً عن المنهج العلمي المطلوب في فضح ممارسات ومخططات القوى الامبريالية والعربية والاقليمية التي تستهدف نشر ثقافة وسياسات التطبيع مع العدو الصهيوني.

وفي هذا السياق نقول بصراحة وموضوعية، إن القبول "بإسرائيل" ككيان طبيعي في منطقتنا العربية، سيظل أمرا غير قابل للتحقق، إذ إن هذه الدولة لن تصبح في يوم من الأيام جزءاً من نسيج المنطقة العربية ولن تتخطى يوما دورها الوظيفي المرسوم ضمن المشروع الإمبريالي كمركز للسيطرة على الوطن العربي ومقدراته، بما يملكه من آليات القوة والإكراه المتوفرة له راهناً، في مقابل آليات الضعف والاستسلام السائدة في بلادنا العربية ، وهي معادلة شاذة لن تحقق التعايش أو السلام أو التنمية أو التقدم، بل تعيد إنتاج آليات الصراع العربي – الإسرائيلي انطلاقاً من نزوع وتطلع شعوبنا العربية نحو الانعتاق والنهوض والوحدة، إذ لا سبيل أمام أي قطر عربي للخروج من المأزق الراهن صوب التحرر والتنمية والعدالة الاجتماعية بغير العمق القومي العربي وبعده الإنساني النقيض للعولمة وأصحابها.

على أي حال، لابد من التأكيد على أن المنطلق الأساسي لتقارير المنظمات غير الحكومية NGO s التي تتخذ الليبرالية ومنهجها كل أدواتها المعرفية التي يتم استخدامها وتطبيقها على واقع عربي تابع ومتخلف ومأزوم، لا يمكن إخراجه من هذه الحال، إلا بأدوات معرفية نقيضه للأدوات الليبرالية بل وفي مواجهتها، تعمل عبر قوى يسارية ديمقراطية – على تجاوز هذا الواقع وتغييره، خاصة وإننا في فلسطين وبقية بلدان الوطن العربي، غير قادرين في المدى المتوسط، على تغيير ميزان القوى الاقتصادي مع العدو الإسرائيلي، إلا إذا حقق العرب – كما يقول د. يوسف صايغ – "قدرات اقتصادية وثقافية وعلمية ملموسة تُضيّق الفجوة الحالية بين القدرات العربية والإسرائيلية، شرط أن يتحقق تبدل جوهري في العقل العربي يستطيع معه أن يترجم الأقوال الى أفعال، والرؤى الى استراتيجيات ومخططات عمل وسياسات رشيدة تقوم على التعاون والتكامل العربي، والتصميم الجاد على احداث التبدل الجوهري في الموقف العربي، وتحمّل تبعات ذلك سياسياً ونفسياً ومالياً"[30]، ذلك أن "مشاريع التنمية كما الاستراتيجيات، تكون شاملة أو لا تكون، وإن النمو أو التخلف لا تقرره موارد أو تدل عليه جداول أو بيانات إحصائية فحسب، بل الإطار الفكري والسياسي والاجتماعي الشامل الذي تمت وتتم في ظله العملية أيضاً"[31]، وبالتالي فإن الإطار المطلوب هنا، هو بالضرورة الإطار النقيض للرؤية والسياسات الليبرالية، إطار مفاهيمي يحمل في مضامينه وآلياته ضرورة أن يكون مصطلح أو تعبير التنمية دالاً وحاملاً – كما يقول د. إسماعيل صبري عبد الله –لعملية التغيير الإرادي في مقومات المجتمع، وهو ما يعجز مصطلح "التنمية الإنسانية" عن حمله ناهيك عن الدعوة الصريحة للتغيير البنيوي التي تغيب دوماً عن معظم تقارير التنمية، وبالتالي يصبح مصطلح أو مفهوم "التنمية المستقلة" وفق ما أورده د. عبد الله، هو المؤهل لهذه العملية لكونه يتضمن التغيير الإرادي المقصود لتحرير شعوبنا من التبعية والاستغلال، وما يرتبط بهما من فقر وجهل ومرض وغيرها، إذ أن ميزة هذا المفهوم تكمن في مضمونه الذي لا يقتصر على التنمية الاقتصادية فحسب، بل يشمل أيضاً الجوانب الثقافية والاجتماعية والحضارية، فالتنمية المستقلة – بهذا المعنى -، تعبر وتجسد مشروعاً حضارياً مجتمعياً واقتصادياً وسياسياً معتمداً على الذات، دون أن يعني ذلك الانسلاخ الكامل عن العالم من حولنا، وهي بالتالي رؤية نقيضة للتنمية التي يروج لها أصحاب المنطق الليبرالي وأدواته المعرفية والسياسية التي لن تقدم لمجتمعاتنا وشعوبنا سوى نوع خبيث من التنمية، يؤكد على استمرار خضوعها بدرجات متفاوتة للتبعية والاستغلال.

من هنا فإن أي رؤية استراتيجية عربية لا تحمل صراحة موقفاً فكرياً وسياسياً واقتصادياً قومياً نقيضاً للرؤية والموقف الليبرالي في عصرنا الراهن، فإنها لن تتجاوز – بكل جهدها وحسن نوايا أصحابها – شكل الظاهرة أو سطحها عبر الحديث عن إطلاق الحريات، والحكم الصالح[32]، والتعليم الراقي والنموذج المعرفي العربي المنفتح ورأس المال الإنساني والجدر وإقامة مجتمع المعرفة... إلخ. على الرغم من إدراك القائمين على هذه التقارير، أن مجتمعاتنا العربية تفتقر – حتى اللحظة- إلى الكثير من مظاهر التطور الاجتماعي الديمقراطي الحديث، ولم ترتقِ بعد إلى الدرجة المطلوبة من شكل ومضمون الدولة المدنية الحديثة، ولاتزال الكثير من بلدانه "في طور القبيلة والعشيرة والعائلة والطائفة، فهي بلدان أو مجتمعات تنتمي إلى عالم "ما قبل الرأسمالية (رغم وجود العلاقات الرأسمالية فيها)، وبالتالي فهي تميل إلى أن تأخذ شكل الانقسام إلى طرق وطوائف وإثنيات ، إذ عندما يكون التقسيم الاجتماعي للعمل متخلفاً (غير متطور) في مجتمع ما ، فان التمايز الاجتماعي يأخذ شكل تمايز في المراتب (أمراء، رجال دين ، الكهنوت، الفلاحون، أرباب الحرف والصنائع) دون أن ينعكس ذلك بالضرورة في شكل هيكل أو تمايز طبقي محدد المعالم بالمعنى المعاصر"[33].

وفي هذا السياق، لا أستطيع أن نتجاوز تغيرات هذه المراتب في سياق تطور المجتمعات العربية في النصف الثاني من القرن العشرين عبر دولة "ما بعد الاستقلال" ودورها الذي انحصر في ثلاث نماذج رئيسة من التنظيم الاجتماعي والاقتصادي للدولة، هي "الدولة ذات الطبيعة الرأسمالية الليبرالية، ونموذج رأسمالية الدولة، ونموذج الدولة ذات الطبيعة الريعية"[34].

ولكن، مع نهاية القرن العشرين بدأ في الظهور ما يسمى بـ "الدولة الكومبرادورية" نتيجة التداخل العضوي بين مصالح البيروقراطية المهيمنة في الدولة من ناحية ومصالح الكومبرادور من ناحية ثانية، دون أن يعني ذلك تبلور الطبقة البرجوازية العربية بصورة مكتملة أو ناضجة أو واضحة المعالم في بلادنا، وهنا لابد من "إزالة اللبس والخلط في المفاهيم – الذي ساد طويلاً في الكتابات العربية – بين تعبيري"البرجوازية" و "الرأسمالية"، فمصطلح البرجوازية له دلالة اجتماعية وسياسية وثقافية، إذ أن كلمة "البرجوازية" تفيد معنى التمدن في نمط وأسلوب الحياة والأفكار والنظرة، بينما تعبير رأسمالية "مشتق من نمط الإنتاج الرأسمالي، فهو مرتبط بملكية علاقات الإنتاج والاستغلال الرأسمالية"[35].

وبالتالي فان المصطلحات أو الصفات المميزة للشرائح الرأسمالية العليا في بلادنا راهناً، يمكن أن تندرج – عموماً – تحت أوصاف "الرأسمالية الكومبرادورية أو "الطفيلية" أو "رأسمالية المحاسيب" أو "برجوازية الصفقات والسمسرة".

وعلى ضوء هذه الملاحظة، يمكن لنا القول انه بينما يمكن الحديث عن "فئات رأسمالية" أو "طبقة رجال الأعمال" أو "المستثمرين" في المجتمع العربي المعاصر، فانه يصعب الحديث عن ظهور "برجوازية" بالمعنى الاصطلاحي في السياق الأوروبي، أي تلك الطبقة التي تضطلع بمهمات النهضة والتصنيع والتنمية الاقتصادية "بعد أن نشأت عبر صراعها الحاد مع النظام الإقطاعي وقامت بتصفية مؤسساته وقيمه وآثاره في الاقتصاد والمجتمع على حد سواء، بعكس الفئات الرأسمالية والبيروقراطية الحاكمة في بلادنا التي نشأت من رحم كبار الملاك وأشباه الإقطاعيين حاملة معها مساحة كبيرة من علاقاتهم وتراثهم وقيمهم الرجعية والمتخلفة، سواء في إطار النظام البيروقراطي العثماني أو في إطار الاستعمار البريطاني / الفرنسي، ثم استمرت فيما بعد في إطار دول النظام العربي – بهذه الدرجة أو تلك – من التطور البطيء الذي تميز ومازال بحالة من الفرز الطبقي تداخلت من خلاله العديد من الشرائح الاجتماعية ذات الأصول والأنماط المختلفة لم تتبلور بعد على شكل طبقات محددة المعالم، بحيث تتمكن كل طبقة منها تحديد رؤيتها الأيدلوجية والسياسية أو إنشاء أحزابها المعبرة عن مصالحها الاقتصادية بصورة واضحة.

ينطبق ذلك على "البرجوازية" بمثل ما ينطبق على "الطبقة العاملة"، وذلك يعود لأسباب داخلية وخارجية:
الأولى ترتبط بخصوصية الأنماط الاجتماعية والاقتصادية التي حكمت مسار التطور الاجتماعي التاريخي في بلادنا بوتائر ومعايير مختلفة تماماً عن تلك التي حكمت مسار التطور في البلدان الأوروبية ابان عصر النهضة.

أما الثانية، الأسباب الخارجية، فهي تعود بالدرجة الأولى إلى تعمق وتكريس مظاهر التخلف والتبعية عبر الهيمنة الاستعمارية الحديثة والمعاصرة التي استطاعت في المرحلة الراهنة، دمج بلداننا العربية بصورة ذيليه تابعة وخاضعة لنظام العولمة الرأسمالي، خصوصاً في ظل تفاقم الصراعات الدينية الطائفية الدموية التي لم تتوقف آثارها عند تدمير الدولة فحسب، بل أيضاً أدت إلى انحسار القضية الفلسطينية في أذهان الشعوب العربية.

والإشكالية الكبرى، أن المجتمع العربي يتعرض اليوم لهذه الأحوال المأزومة بكل

أبعادها، في اللحظة التي انتقل فيها العالم من مرحلة تاريخية سابقة، إلى المرحلة الجديدة أو العولمة، بتسارع غير مسبوق، وبمتغيرات نوعية تحمل في طياتها، في الحاضر والمستقبل، تحديات غير اعتيادية، لا يمكن امتلاك القدرة على مواجهتها إلا بامتلاك أدواتها المعرفية والعلمية، وهو هدف لا يمكن تحقيقه في ظل استمرار بقاء السيطرة الإمبريالية على قدراتنا عبر تحالفها غير المقدس مع أنظمة التبعية والخضوع في بلادنا من جهة، او في ظل استفحال مظاهر التخلف والاستبداد من جهة ثانية، بما يؤكد على ترابط العاملين الداخلي والخارجي، ومواجهتهما معاً في سياق عملية التغيير المطلوبة لمجتمعنا العربي بعكس ما تدعو إليه بعض التقارير العربية والدولية التي تؤكد على الاقتصار على العامل الداخلي وحده، ذلك إن "الاستلاب الأيدلوجي بشكليه السلفي والاغترابي هو ابرز الآليات الداخلية التي تعيد إنتاج التأخر، وتعيد إنتاج الاستبداد وتحافظ على البنى والعلاقات والتشكيلات القديمة ما قبل القومية، فالعلاقة بين المستوى الأيدلوجي السياسي والمستوى الاجتماعي الاقتصادي، هي علاقة جدلية، تحول كل منهما الآخر في الاتجاهين"[36].

إن جوهر الأزمة في مجتمعاتنا العربية لا يكمن في ضعفها المعرفي الراهن، أو عجزها في مواكبة العصر من حيث التقدم العلمي والتكنولوجي، بل يعود بالدرجة الأولى إلى أن بلداننا العربية عموماً لا تعيش زمناً حداثياً أو حضارياً، ولا تنتسب له جوهرياً، وذلك بسبب فقدانها، بحكم تبعيتها البنيوية، للبوصلة من جهة، وللأدوات الحداثية الحضارية والمعرفية الداخلية بحكم تطورها المشوه من جهة أخرى، ذلك هو الجوهر الذي يستوجب التحليل والتشخيص من رفاقنا في الجبهة خصوصاً، لمعرفة السبل والآليات الضرورية لتغييره وتجاوزه، وليس الوقوف أمام مظهر الأزمة أو شكلها الخارجي الذي لم يقدم شيئا إضافيا سوى مزيد من الإحباط والألم.

بقي أن نشير إلى أن ما تحتاج إليه شعوبنا في هذه المرحلة، كما بالأمس يتمحور عند مشروع النهوض المجتمعي، الوطني والقومي الذي "يحقق تقدماً متزامناً، ومتوازناً في الاتجاهات الثلاثة: التقدم الاجتماعي، دمقرطة المجتمع، بوصفها عملية دائمة وليس مجرد "وصفه" أو "مخطط" جاهز، وأخيراً التأكيد على الطبيعة المتمركزة على الذات للمشروعات المجتمعية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية "[37] المستقلة للإسهام في توليد آفاق المستقبل الذي تتطلع إليه شعوبنا وشعوب العالم المستضعفة والفقيرة ، عبر الخلاص من عدوها الوحيد الواضح، وهو رأسمال القلة الاحتكارية المعولم والإمبريالي المسيطر والى جانبه مجموع القوى السياسية التي تقف في خدمته اليوم، وهذا يعني حكومات الثالوث الأمريكي – الأوروبي – الياباني، وحكومات الطبقات الحاكمة الرجعية أو الكومبرادورية والتابعة في بلادنا العربية، كما هو الحال في كل البلدان الفقيرة، إذ أن بلدان الجنوب (كما في بلادنا العربية) هذا العدو في إطار استراتيجية اقتصادية، سياسية ، أيديولوجية، عسكرية مشتركة، لديه مجموعة من الهيئات المجندة لخدمته (المنظمة الأوروبية للتعاون والتنمية، والبنك الدولي، صندوق النقد الدولي، ومنظمة التجارة العالمية، وحلف شمال الأطلسي ... الخ). ولديه مراكز "الفكر" وأماكن اللقاء في دافوس، وغيرها من النوادي والجامعات، وهو يخترع الشعارات البراقة في الخطاب الذي يفرضه مثل "الديموقراطية" أو "حقوق الإنسان" و"محاربة الفقر" والحرب ضد "الإرهاب" ... الخ.[38] بما يخلق مزيداً من الأزمات في وجه شعوبنا لضمان استمرار احتجاز تطورها وتعميق تخلفها وتبعيتها بما يفرض على القوى والأحزاب الطليعية العربية عموماً، وجبهتنا الشعبية خصوصاً، أن تجدد نفسها وبنيانها وان تخرج من أزماتها وضعفها الشديد وتخلفها المعرفي، وترتفع إلى المستوى الذي يسمح "ببلورة استراتيجيات القوى الشعبية، عبر رؤى وبرامج راهنة ومستقبلية، سواء على مستوى إدراك عالمية الاعتماد المتبادل بينها، أو على مستوى التعبير الجزئي والمحلي (على الصعيدين القطري والقومي)، وأن تبادر – بخطوات جادة- صوب تأسيس وبلورة البديل الديمقراطي اليساري الذي تنتظره جماهير شعبنا بشوق كبير لمجابهة قوى اليمين العلماني في فتح وقوى اليمين الديني، وانهاء الانقسام وصولاً إلى تجسيد النظام السياسي الوطني الديمقراطي، إلى جانب دورها المنشود في تفعيل النضال التقدمي العربي عبر مساهمتها في الجبهة الشعبية التقدمية العربية التي تأسست منتصف العام الماضي 2016.

وهنا فقط، تصبح الحركة "القوة المحركة للتاريخ"[39] من أجل المساهمة -في المدى المنظور والبعيد- في بناء النظام السياسي العالمي الجديد الرافض لسلطة رأس المال الاحتكاري، المحقق للحرية والعدالة الاجتماعية والديمقراطية لكل شعوب كوكبنا.

أخيراً، ان ما يعزز هذا التوجه ويغذيه – بدواعي الحركة والقوة والمواجهة – معاناة شعبنا الفلسطيني وشعوبنا العربية وشعوب العالم الثالث، وإذلالها واستعبادها وإفقارها على يد الحركة الصهيونية ونظام العولمة وآلياته المتوحشة، وهي معاناة كشفت إلى حد بعيد – سواء في الوعي العفوي للشعوب المضطهدة أو في وعي نخبتها الطليعية – ان هذه العولمة تحمل تناقضا صارخاً يكشف زيف ادعاءاتها عن الديموقراطية والتنمية وحقوق الإنسان في بلادنا، وهو تناقض يتجسد في هذا التزايد المتسارع من الدمج والهيمنة والتمركز الاحتكاري الذي ينفي بصورة كلية أي إمكانية للمنافسة أو التعددية المزعومة، بل يهدف إلى مزيد من الإلحاق والتبعية صوب الاحتواء الكامل لثروات هذه الشعوب ومقدراتها، بما لا يترك أمام هذه الشعوب خياراً، سوى التأسيس للبديل الشعبي المنظم شرط امتلاك الرؤية المعرفية العقلانية ومنهجيتها السائدة في عالم اليوم، وفهمها واستيعابها ودمجها – كما يقول الياس مرقص[40] "في فكرنا ووعينا وروحنا مستلهمين في ذلك ديالكتيك هيجل وماركس الذي يؤسس لخيار الاشتراكية غير المرئية الآن، خيار العولمة الإنسانية البديلة لنا وللعالم أجمع"□□

---

[1] حوار مفتوح مع غازي الصوراني – ديسمبر 2010.
[2] رميدي عبد الوهاب - اقتصاد المعرفة، الفجوة الرقمية - بحوث اقتصادية عربية ، العددان 43-44 ، صيف – خريف 2008 – ص47-58
[3] يعلق البعض على عصرنا هذا، بأنه عصر الانفجار المعرفي، حيث يشير العالم بروتو (proto) أن حجم المعرفة الانسانية قد ازداد بمقدار 2.5 مرة بين مطلع التقويم الميلادي وعام 1500 ، وتضاعف مرة ثانية من عام 1540 – 1800 ، ومرة ثالثة بين عام 1800 – 1900 ، ومرة رابعة عام 1900 – 1945 ثم تضاعف بين عام 1945 – 1960 ، وبين عام 1960 – 1998 ، وهكذا.
[4] المصدر السابق – رميدي عبد الوهاب – ص48
[5] نبيل علي ، العقل العربي ومجتمع المعرفة: مظاهر الأزمة واقتراحا بالحلول - السيد يسين – ص165-169
[6] د. هشام غصيب – جدل الوعي العلمي – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – عمان – الأردن 1992ص13
[7] نبيل علي – اقتصاد المعرفة – وجهات نظر – العدد 59 – القاهرة – ديسمبر 2003 – ص28 .
[8] المصدر السابق – ص29
[9] المصدر السابق - ص29
[10] الموسوعة الفلسفية – ترجمة سمير كرم – دار الطليعة – بيروت – الطبعة الرابعة – 1981 .
[11] محمود العالم – الفكر العربي بين الخصوصية والكونية – دار المستقبل العربي – القاهرة – 1996 - ص196
[12] المصدر السابق –ص 197
[13] د. محمد عابد الجابري – تكوين العقل العربي –مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت – الطبعة الثالثة –1988 – ص332 .
[14] المصدر السابق – ص333 .
[15] المصدر السابق ص346
[16] المصدر السابق ص347
[17] ماهر الشريف – رهانات النهضة في الفكر العربي – دار المدى – دمشق – الطبعة الأولى 2000- ص149 .
[18] المصدر السابق – ص 149
[19] المصدر السابق – ص270
[20] المصدر السابق – ص 253
[21] المصدر السابق – ص255
[22] المصدر السابق – ص 261
[23] المصدر السابق – ص280
[24] المصدر السابق – ص 282
[25] المصدر السابق ص 283
[26] محمود العالم – الفكر العربي بين الخصوصية والكونية – دار المستقبل العربي – القاهرة – 1996 – ص97
[27] د. رمضان بسطاوي – فلسفة المعلومات والتكنولوجيا – قضايا فكرية – العدد 16/15 القاهرة – يوليو 1995 –ص471
[28] محمود العالم – مصدر سبق ذكره – ص227
[29] د. إبراهيم العيسوي – التنمية في عالم متغير – دار الشروق – القاهرة – الطبعة الثانية – 2001 – ص46
[30] د. يوسف صايغ – الإمكانات الاقتصادية الإسرائيلية – الجزء الأول – مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت – 2000 –ص411
[31] د. حسين أو النمل – المصدر السابق – ص428
[32] مصطلح " الحكم الصالح good governance" ظهر في دراسة قدمتها مؤسسة " كوفمان وشركاه " الأمريكية ، إلى البنك الدولي خلال عام 1999 اعتمدت على معيار " فعالية الحكومة " أو " كفاءة الحكم " من خلال مجموعة من الإجراءات الشكلية أو المراسيم القانونية كتلك التي جرى تطبيقها في السودان وسلطنة عمان وقطر ، والتي اعتبرها " تقرير التنمية الإنسانية العربية " تطورات إيجابية تجسد مفهوم الحكم الصالح في تلك البلدان ، رغم أن هذا المؤشر – الأمريكي – لم يتطرق لعدالة توزيع الدخول والثروات والسلطة في المجتمع كمقياس لجودة الحكم الصالح ، ما يدل بوضوح على أن فريق التقرير قام بتثبيت هذا المصطلح والدفاع عنه استجابة لوجهة نظر العولمة الأمريكية. (د. محمود عبد الفضيل – وجهات نظر – العدد 47 – ديسمبر 2002)
[33] د . محمود عبد الفضيل – التشكيلات الاجتماعية / الطبقية في الوطن العربي (1945 – 1985) – مركز دراسات الوحدة – بيروت – 1988 – ص29
[34] المصدر السابق – ص111
[35] المصدر السابق – ص144
[36] جاد الجباعي – التبعية وإشكالية التأخر التاريخي – كتاب جدل – العدد الثالث – مؤسسة عيبال – قبرص – 1992 – ص145
[37] سمير أمين ، البديل للنظام النيوليبرالي المعولم والمسلح – المستقبل العربي – العدد 298 – ديسمبر 2003 – ص12
[38] سمير أمين – المصدر السابق – ص16
[39] سمير أمين – المصدر السابق – ص16
[40] الياس مرقص – نقد العقلانية العربية – دار الحصاد للنشر – بيروت – 1997 – ص561

فن الموسيقي السينمائية

عطا ضرغام

مصر

❑ تعد الموسيقي السينمائية مؤلفات موسيقية متحررة من قيود الأشكال التقليدية والخيال والجامح، وبالتالي فإن أنماط الخيال هذه تتحدي بالتعريف (المنطق والواقع) فهي تتوافق مع الخيال؛ لانها تعمل بقوة علي العقل غير الواعي؛وبالتالي فإنها تعمل بصورة جيدة ورائعة في بناء الفيلم لأنها ترتبط بالصورة البصرية.

وبالتالي، نري أهمية وجود الموسيقي في الأفلام السينمائية، إلا أن هذه الموسيقي كثيرًا ما تُسيطر علي أحاسيسه وتتحكم في عواطفه، وهي دون شك إحدي الأدوات الرئيسية التي تعزز الأثر السيكولوجي للفيلم علي أحاسيس المشاهد.

ومما يلاحظ أن للموسيقي وظيفة فعّالة في مجال التعبير السينمائي ،وذلك علي أساس أن السيناريو الموسيقي متلازم تلازمًا منطقيًا ووجدانيًا مع سيناريو الفيلم وموازيًا مع التشكيل الجمالي للصورة، وذلك ما اصطلح عليه (بالتآلف السمعي البصري).

وقد اكتشف مؤلفو الموسيقي السينمائية سر فاعلية هذه المهمة منذ بداية عصر السينما الناطقة ، وقد نقل هؤلاء الموسيقيون عن أوبرات الموسيقار الشهير فاجنر فكرة الموضوع الموسيقي،واللحن الدال أي (اللحن المقترن بشخصية أو بمكان أو بشيء) إلي الأفلام السينمائية، ومع تطور سرد القصة السينمائية تجمع هذه الألحان الموسيقية معاني وذكريات جديدة .ومع نهاية الفيلم يكون لهذه الألحان وقع كبير علي المشاهد، وقد توحي بأفكار خاصة بها تكون أحيانًا مخالفة لما يراه المشاهد علي الشريط السينمائي.

وتعني موسيقي الأفلام السينمائية إلي عدد كبير من الناس بالموسيقي الخلفية، وهي شيء يمكن لا ملاحظته إلا عندما يتوقف الحوار، وحتي في هذه الحالة يعتبرونها غير مهمة، وهذا يقلل بصورة غير منطقية من الإسهام الذي يمكن أن تؤديه الموسيقي للفيلم.وفي حقيقة الأمر إنه أحيانا ما يطلب من مؤلفي الموسيقي أن يقدموا موسيقي لمجرد أن تساعد علي خلق جو معين أو تعكس وتبرز العاطفة أو أن تزيد من إيقاع أو تبطيء منه،او أن تثير المتفرجين أو تهدئتهم.

ازدهرت الموسيقي التصويرية في القرن التاسع عشر،وأصبحت من أهم مميزات المدرسة الرومانتيكية في الموسيقي، وذلك علي الرغم من أن فكرة التعبير والوصف بالموسيقي لم تكن فكرة جدية من ابتكارات المدرسة الرومانتيكية .فهناك أمثلة عديدة لاستعانة الموسيقيين في مؤلفاتهم بمحاكاة أصوات الطيور وتدفق مياه الأنهار، بل انهم صوروا المعارك الحربية وغير ذلك من الأحداث قبل مولد الحركة الرومانتيكية بزمن طويل إلا أنه يمكن القول إن التصوير والتعبير لم يكن بالدقة التي نجدها في مؤلفات المدرسة الرومانتيكية، وازدهرت الموسيقي ذات الموضوع في القرن التاسع عشر واستطاعت أن تطغي علي جميع الألوان الموسيقية الأخري واحتلت مكان الصدارة بين المؤلفات الموسيقية.

وبازدهار الموسيقي الوصفية التصويرية عرف العالم ألوانًا جديدة من المؤلفات الموسيقية واحتلت السيمفونية ذات البرنامج مكان السيمفونية الكلاسيكية ، وعرف العالم الافتتاحيات الموسيقية التي تصور بعض المشاهد أو الأحداث التي لا ترتبط بأي عمل آخر كافتتاحيات الأوبرا مثلًا؛ أي ان هذه الافتتاحيات كانت أعمالًا مستقلة قائمة بذاتـــها، وأخـــيرًا استطاع الموسيقـــار فرانـــز ليست أن يزحزح السيمفونية عن مكانها التقليدي بمؤلفاته التي أطلق عليها اسم القصائد السيمفونية، ولقد تبعه عدد كبير من الموسيقيين في النسيج علي منواله وتربع القصيد السمفوني الذي يروي الأساطير ويسرد القصص علي عرش الموسيقي في منتصف القرن التاسع عشر.

وقد استغلت السنما الصامتة في أول ظهورها قوة تأثير الموسيقي فاستعانت معظم دور السينما بفرق صغيرة أو علي الأقل بعازف للبيانو يصاحب الفيلم المعروض بمختارات من الموسيقي العالمية، ولقد شعرت شركات السينما بقوة تأثير الموسيقي فقررت في بعض الحالات تكليف بعض الموسيقيين بكتابة بعض الموسيقي التصويرية لأفلامها.

وتلعب الموسيقي التصويرية في البرامج والقصص والتمثيليات الإذاعية دورا أساسيًا؛ إذ يعتمد عليها المخرجون إلي حد كبير حتي إنه يمكن القول إن اختيار الموسيقي المصاحبة لتمثيلية ما لا يقل في أهميته عن النص المكتوب وما أكثر التمثيليات التي يكون سوء اختيار موسيقاها لها سببًا في سقوطها.

وإن الغرض الأساسي من الموسيقي المصاحبة هو زيادة مقدرة المستمع علي تفهم حوادث التمثيلية الهزلية وتهيئة الجو الذي تدور فيه وقائعها ، ويمكن للموسيقي المصاحبة إذا حسن اختيارها أن تؤدي إلي أحسن النتائج.

ويرز من أهم مؤلفي الموسيقي السينمائية في العالمن شارلي شابلن الذي قام بوضع الموسيقي التصويرية لأفلامه. وفي سيرته الذاتية يقول:" إن معظم موسيقاه كانوا يُصابون بالدهشة ؛لأن موسيقاه التصويرية شاعرية وعاطفية وليست هزلية،ويشير إلي أنه فعل ذلك دائما لإضفاء بُعد عاطفي علي مشاهده الكوميدية، وقال عنه برناردشو:" إنه العبقري الأبرز الذي خرج من عالم الصناعة السينمائية،وهو بالفعل كذلك وأكثر.

فالأسطورة شارلي شابلن عبقرية إنسانية نادرة قلما يجود بها الزمن، لا تتمثل بامتلاك موهبة بجانب واحد بل بكل ما يمتلكه الإنسان من طاقات وحواس؛إذ لم يعرف تاريخ السينما سوي فنان واحد امتلك القدرة علي كتابة أفلامه وتأليف موسيقاها وتمثيلها وتصويرها وإخراجها وأحيانًا إنتاجها وهو شابلن.

ويأتي اسم مؤلف الموسيقي الروسي سيرجي بروكوفيف(1891-1953) في تاريخ الموسيقي سواء في وطنه أو في الخارج؛إذ استطاع أن يحقق لنفسه في عالم الموسيقي نجاحًا كبيرًا، وكان لتمكنه من الأسس العلمية والنظرية للموسيقي ما جعل له أسلوبًا متميزًا يمتزج خلاله أسلوبه الشخصي بالأساليب الكلاسيكية التقليدية،وإن تميزت لغته الهارمونية بطابعها الرصين واعتماده إلي حد كبير علي استخدام التآلفات الهارمونية المتنافرة، ولكنه يمزج بين التآلفات المتنافرة والتآلفات المتوافقة في أسلوب يجعل للغته الهارمونية أثرها الكبير في الكتابة الأوركسترالية.

وقد ارتفع بروكوفييف بفن موسيقي الأفلام السينمائية حين وضع الموسيقي لفيلمين مهمين للمخرج أيزنشتاينن وهما فيلم(الكسندرنفسكي) وفيلم(إيفان الرهيب)،فإذا هذه الموسيقي تسهم بقدر كبير في المكانة المرموقة التي حظي بها أيزنشتاين ، كما غدت موسيقي الفيلمين متعة عشاق الموسيقي في حفلات الكونسير.

ويُعد الموسيقارآرون كوبلاند(1890- 19919 في مقدمة مؤلفيي الموسيقي الجادة في الولايات المتحدة الأمريكية وهو يجمع في أعماله بين موهبة كبيرة علي الخلق والابتكار ومقدرة مكتسبة علي صياغة الألحان والأفكار الموسيقية.وفي شتي النماذج البنائية الموسيقية،درس كوبلاند الموسيقي في وطنه أولًا، ثم في فرنسا؛حيث درس أسس التأليف الموسيقي علي ناديا بولانجية وعقب عودته إلي أمريكا عكف علي إلقاء المحاضرات والكتابة

وشرح الأعمال الموسيقية المختلفة إلي عمله كمؤلف موسيقي له إنتاجه الفني الكبير.

ويبرز ديمتري شوستاكوفتش (1906-1975) كمؤلف موسيقي في مقدمة مؤلفيي وطنه روسيا خلال النصف الثاني من القرن العرين، ولقد استطاع أن يحتل مكانة مرموقة في عالم الموسيقي ليس في وطنه فحسب، بل إن أعماله تقدم اليوم في شتي بقاع العالم.

كتب شوستاكوفيتش الموسيقي للعديد من الأفلام السوفيتية،ولكن الفترة التي كتب خلالها سيمفونيته الخامسة والسادسة شهدت في الوقت نفسه كتابة الموسيقي المصاحبة لعدد من الأفلام السينمائية بلغ عددها سبعة، تناولت مواضيع مهمة بالغة الروعة، وفي ستينيات القرن العشرين، كتب موسيقي لأفلام سوفيتية عالمية شهيرة تزخر بمستويات فنية عالية، حاول بها الاتحاد السوفيتي أن ينافس هوليود في إنتاج أفلام متميزة وجادة وهادفة تتكامل فيها الفنون الدرامية والموسيقية في أعلي المستويات، ولقد حققت هذه الموسيقي الجديدة لشوستاكوفيتش نجاحًا علميًا مذهلًا وشهرة جماهيرية في العالم أجمع ومن أهم الأفلام السينمائية (خمس أيام وخمس ليالي) وفيلم(هاملت).

وفي مؤلفات الموسيقار الأمريكي برنارد هيرمان (1911-1975) خصوصًا موسيقي الأفلام نلاحظ أنه يمتلك أسلوبًا من أكثر الأساليب تميزا بين مؤلفي موسيقي الأفلام، ويعود ذلك إلي أنه كان يصر علي أن يتولي توزيع موسيقاه أوركستراليا بنفسه، وتبز عبقريته الموسيقية في أفلام (كل ما يمكن للنقود أن تشتريه- 1941)والفيلم البديع(الشبح ومسز مورو-1947)وأفلامه التي أخرجها ألفريد هيتشكوك (1899-1980) بدءًا من(مشكلة هاري-1955)، وأفضل أعماله لأفلام هتشكوك هي بلا شك موسيقي فيلم(دوار-1958) وتليها موسيقي فيلم(الشمال عن طريق شمال الغرب- 1959) وفيلم سايكو او (نفوس معقدة-1960).

ويُعد موريس جار(1924-2009) من بين أشهر مؤلفي موسيقي الأفلام في هوليود، وقد ذاع صيته من خلال تأليفه لموسيقي الأفلام السينمائية خصوصا بعد تعاونه مع المخرج السينمائي (دافيد لين)حيث قام موريس جار بتأليف معظم موسيقي أفلامه بداية من لورانس العرب عام 1962 وفيلم القطارعام 1964 مرورا بفيلم محمد رسول اللهعام 1976 وفيلم الشاهد عام 1985 ،وفيلم الشبح عام 1990

تميز أسلوب موريس جار باستعماله الأوركسترا واقتباسه من الموسيقي المحلية التي تدور فيها أحداث الفيلم ،ومنها استعمال الأبعاد والتيمات الموسيقية في فيلم(الرسالة) وذلك في تناوله هذه الألحان علي مقاهي الكرد والحجاز ،واستخدامه لآلات موسيقية مثل: الدفوف والمزاهر، وفي فيلم(ابنة راين –عام 1970) استعمل الألحان المميزة الأيرلندية، وفي الثمانينيات بدأ يستعمل الموسيقي الأليكترونية وأخذ يمزجها مع الاوركسترا، وذلك لانه بدا يتجه لتأليف موسيقي أفلام الخيال العلمي.

وعن مؤلفي الموسيقي السينمائية في السينما المصرية، يبرز اسم محمد حسن الشجاعي (1899-1963)،وكان من أوائل الموسيقيين الذين قاموا بتأليف الموسيقي لأفلام بنك مصر التي كانت تعتبر دعاية لشركات البنك،ثم ألف كثيرًا من موسيقي الأفلام المصرية الناطقة التي أنتجها ستوديو مصر، والأفلام التي شاركت فيها كوكب الشرق أم كلثوم وغيرها من الأفلام..

وتأتي بهيجة حافظ(1908-1968) كرائدة من رائدات التأليف الموسيقي للموسيقي السينمائية، وهي الفنانة الشاملة التي مثلت وانتجت وأخرجت، وألفت الموسيقي للعديد من الأفلام السينمائية.فبعد ان نالت شهرة في عالم الموسيقي ،كاول سيدة مصرية تقتحم هذا الميدان نُشرت صورتها في مجلة"المستقبل" التي كان يصدرها إسماعيل وهبي المحامي شقيق يوسف وهبي، وقد نُشرت صورتها علي غلاف المجلة بالبرقع والطرحة،وكُتب تحتها عبارة"أول مؤلفة موسيقية مصرية، حينها كان محمد كريم يبحث عن بطلة لفيلمه الأول "زينب" بعد ان رفض يوسف وهبي قيام أمينة رزق بالبطولة.عندها لفتت فتاة الغلاقف انتباه محمد كريم، فعرض عليها بطولة الفيلم، ولم تكتف ببطولة الفيلم فحسب، بل قامت بوضع الموسيقي المصاحبة له التي تتكون من اثنتي عشرة مقطوعة موسيقية.

وبهيجة حافظ لها مآثر جليلة علي الموسيقي المصرية لكونها زاولت هذا الفن منذ عهد بعيد علي أسس علمية وقواعد مدروسة في معاهد مصرية وأوربية فضلًا عن تمتعها بشهرة فائقة في عالم المسرح والتمثيل، وإن أفلامها العديدة وما تحويه من أغنيات ورقصات تقليدية، وقصص درامية ممتعة لدليل علي نبوغ بهيجة حافظ .

ووضع عبد الحليم نويرة(1916-1985) الموسيقي لأكثر من ستين فيلمًا مصريا منها)عنتر وعبلة- سفير جهنم- الماضي المجهول- الشوارع الخلفية)..وكان حريصًا في موسيقاه ذات النمط الشرقي علي استخدام نغمة (ربع الصوت)، واستطاع تقديم التراث الموسيقي التقليدي برؤيته الخاصة التي اهتم فيها بتوحيد أداء الكورال والعازفين وتوحيد الاداء بما ألغي السمة الارتجالية المميزة لأداء الموسيقي العربية.

ويُعد فؤاد الظاهري (1916-1988) من أهم المؤلفين الموسيقيين الذين يبرز أثرهم بوضوح في مجال كتابة موسيقي الأفلام السينمائية المصرية، ويتميز فؤاد الظاهري بمستوي بارع في الدراسة الموسيقية والتعامل مع الآلات الاوركسترالية،كما أنه يتمتع بمقدرة فائقة في الصياغة الأوركسترالية ، وعلي الرغم من دراسته الموسيقية الغربية ؛ فإنه لم يتخل عن تناول التراث الموسيقي العربي في استلهام مؤلفاته الموسيقية، وربما كان ذلك من عوامل تميزه عن المؤلفين الموسيقيين الذين يكتبون للدراما الموسيقية السينمائية في ذلك الوقت.

لقد كان صاحب العلامة الأكثر تأثيرا وصاحب فكرا موسيقيًا متطورًا، فألف موسيقي الأفلام التي نذكر منها: (لست ملاكًا-صراع في الوادي- رد قلبي- بداية ونهاية- باب الحديد- شباب امرأة- الفتوة- الزوجة الثانية- السقا مات- الوسادة الخالية- القاهرة 30- أنا حرة)وجميعها أفلام حصلت علي جوائز عديدة.

ولعلي إسماعيل (1922-1974) الكثير من الأعمال الموسيقية في مجال الإذاعة والمسرح والسينما والأفلام التسجيلية، فقد وضع الموسيقي لعدد كبير من الأفلام السينمائية المصرية، وفي هذا المجال تميز علي إسماعيل بنشاط مرموق ، حيث قام بتأليف لما يقرب من 250 فيلما سينمائيًا بين أفلام درامية مثل : (شفيقة القبطية) حيث استخدم نماذج من الالحان الشعبية (ياعزيزي عيني) كلحن دال في الفيلم يظهر كلما اشتاقت الأم(شفيقة) لابنها(عزيز). ويتبع علي إسماعيل هذا الأسلوب في عدد من أعمال الموسيقي التصويرية مثل أفلام: (الأرض) و(الراهبة) و (الخرساء)و (معبودة الجماهير) وغيرها. وموسيقي أفلامه الكوميدية تظهر فيها براعته في عنصر التهكم والسخرية بالموسيقي وهذا شيء جديد علي الموسيقي التصويرية تفوق فيها علي إسماعيل، وحققه بوسائل متعددة مثل: الهارمونيات المتنافرة ،والتلوين بتوظيف الألوان الأوركسترالية وتحوير النماذج الأساسية بصورة مشوهة أو تهكمية ساخرة مثل: (الأيدي الناعمة)، و (مراتي مدير عام) ،و(آه من حواء)،و(عائلة زيزي). أما الأفلام الاستعراضية مثل: (صغيرة علي الحب)، و(غرام في الكرنك)، و (إجازة نصف السنة)، فيبرز فيها التأثر الشعبي مع شكل غنائي راقص، وكان يدخل الآلات الشعبية فيها أحيانًا.

ويأتي أندريا أناجنستوس رايدر كواحد من أبرز وأهم مؤلفي الموسيقي السينمائية التي وضعت للسينما المصرية، حيث قام خلال مسيرته الفنية بوضع الموسيقي لحوال 55 فيلمًا سينمائيًا، وكانت بدايته عام 1954 في فيلم (أربع بنات وضابط)، ثم انطلق بعدها ليقدم الموسيقي السينمائية للعديد من الافلام المصرية مثل: (غروب وشروق- اللص والكلاب- دعاء الكروان- أغلي من حياتي- الحب الكبير- نهر الحب- بين الأطلال- حسن ونعيمة- مع الذكريات- تفاحة آدم- امرأة علي الطريق- اللقاء الثاني-المراهقات).

واشتهر عطية شرارة (1923-2014) بوضع الموسيقي لكثير من الأفلام التي حملت توقيع مخرجين كبار مثل حسن الصيفي الذي حصل علي النصيب الاكبر من مؤلفات عطية شرارة في مجال موسيقي الأفلام التي وضعها، حيث قدم معه موسيقي خمسة أفلام هي(حسن وماريكا) و(قاطع طريق)، و (زنوبة)، و (نهاية حب)، و (توحة).

كما وضع الموسيقي لفيلمي (ساحر النساء)، و(ابن حميدو) للمخرج فطين عبد الوهاب، وتعاون مع المخرج حلمي رفلة في فيلمي (عش الغرام) و (لحن السعادة). وقدم فيلمي (أهل الهوي) و (الغجرية) للمخرج السيد زيادة، وتعاون مع المخرج نيازي مصطفي في فيلم (إسماعيل يس طرزان) بالإضافة لفيلمي (جسر الخالدين) و (حبيبي الأسمر) مع المخرج محمود إسماعيل، وفيلم (الحب الأخير) لمحمد كامل حسن، وفيلم (أحبك يا حسن) للمخرج حسين فوزي.

نشط جمال سلامة (1945-...) في العمل الموسيقي في عدة اتجاهات، فهو يلحن الأغاني ويكتب الموسيقي المصاحبة للسينما والإذاعة والتلفزيون والمسرح والموسيقي السمفونية. وقدم سيمفونية مصر الحديثة في عام 1972، وتمثل هذه السيمفونية مرحلة متطورة في أسلوبه الموسيقي، فيبدو اعتماده علي اللغة الهارمونية المتنافرة، لكن دون ان تحول هذه اللغة الهارمونية الحديثة بين المستمع العربي والاستمتاع بهذه السيمفونية، ومن خلال التدفق اللحني لهذه السيمفونية.

وفي هذا الإطار يأتي كتاب الدكتور إيهاب صبري (فن الموسيقي السينمائية) الذي يتناول توضيح بعض الأدوار المتعددة للموسيقي السينمائية، وما الأسباب التي تقف وراءها لدراسة خصائص واستخدامات موسيقي الفيلم بشكل عام، وموسيقي الفيلم المصري علي وجه الخصوص، كما تناول أبرز المؤلفين العالميين للموسيقي السينمائية، وكذلك المؤلفين الموسيقيين للسينما المصرية❑❑

الطيور تعود إلى أعشاشها والكتابة المغايرة

رياض كامل
فلسطين

ملخص

يتعمّد الكاتب وجيه ضاهر في مجموعته القصصية، "الطيور تعود إلى أعشاشها" (2022) أن يحكي قصة الفلسطيني الذي يواجه المحتلّ يوميا، إذ حيثما تتنقّل الشخصيات فهناك جنود وملاحقات ومواجهات. تمتح القصص أحداثها من هذا الواقع الذي يبدو للقارئ أن لا واقع سواه، حيث الفلسطيني يجترح المعجزات ويسطّر تاريخا خاصا به في قدرته على البقاء فوق تراب أرضه، في ظل ظروف قاسية ومؤلمة وموجعة،أقرب إلى العجائبية منها إلى الواقعية. أو بكلمات أخرى:باتت العجائبية هي الواقع الحقيقي للفلسطيني. أما كل ما يتعلق بحياة الفلسطينيّ وأموره اليومية فهي تسير في ظل هذه المواجهة.

آثر ضاهر أن يكتب بأسلوب يراه الأكثر ملاءمة لهذا الواقع، معاينة الداخل أكثر مما هو معاينة المرئي، فما المرئي من المشاهد التي تُطرح أمام المتلقي سوى آلة تعكس ما يمور في النفس من مشاعر وأحاسيس، ومن أفكار متلاطمة ومتعاركة تدق جدران الرأس لتخط صورة أو مشهدا من واقع مركّب ومعقّد، فيه من الأمل بقدر ما فيه من الألم، وفيه من الانطلاق بقدر ما فيه من سلاسل ومن قيود.فما نراه من تصرفات الشخصيات هو جزء بسيط مما يدور في داخل النفس.

يبدو واضحا ميل الكاتب لاتباع أساليب جديدة مغايرة عن أسلوب كتابة القصة العربية التقليدية، فنراه يميل إلى تهشيم الزمن، وتوظيف أساليب تيار الوعي وتقنياته، والميل نحو الفانتازيا والغرائبية، والتركيز على الداخل أكثر من الخارج.

اختار الكاتب للمجموعة القصصية عنوانا يبدو مباشرا ومألوفا، يوحي بالعودة الطبيعية إلى الدفء والهدوء والسكينة والاستقرار. لكنّ الفلسطينيّ، كما تكشف المجموعة القصصية، لا يعود إلى عشّه عودة طبيعية، ولا يحظى بهذه الحياة التي تتمتع بها الشعوب الأخرى، ولكنه يتابع الحياة.

مقدمة

تعددت المناهج التي تتناول النص الأدبي بالدرس والتحليل، ما يعنينا منها جميعها هو كشف جماليات النص، والبحث في جديد هذا النص،وما سيقوله وكيف، ومدى تقاطعه مع ما سبقه. يعترف بعض كبار المنظرين مثل أمبرتو إيكو أن تحليل النص الأدبي عملية معقدة وشائكة جدا، قد يعجز كبار الدارسين من التأكد من صحة ما يرونه، فنادى، عبر دراساته، إلى أهمية تعدد القراء التي تتيح لقارئ ما أن يرى ما لا يراه آخرون، وبالعكس، كما تحدَّث عن القارئ النموذجي القادر على أن يكون ندا للمؤلف "... ولهذا يتوقع (المؤلف) قارئا نموذجيا يستطيع أن يتعاون من أجل تحقيق النص بالطريقة التي يفكر بها المؤلف نفسه، ويستطيع أن يتحرك تأويليا كما تحرك المؤلف توليديا". أما رولان بارت فقد احتار من أي نقطة يبدأ أثناء عملية التحليل؟ وكيف يبدأ؟

لا توجد قوانين راسخة تلزم الباحث أو الناقد كي يسير بحسبها ملتزما بها التزاما "دينيا" متزمتا، وقد يرى أنّ قصة ما لا ترضي ذوقه، فيما يراها غيره قصة ناجحة. فقد تبنّى بعض المنظرين الكبار فكرة معينة ثم قاموا بتغيير رؤيتهم بناء على التجربة، وما فكرة "موت المؤلف" سوى خير شاهد على ما نقول. لكني أومن أكثر من أي أمر آخر أنّ هناك أصولا لكل نوعأدبي أو فني، وأن هذه الأصول يمكن تعديلها وطرحها بأساليب مختلفة تحمل من التشابه مع غيرها بقدر ما تختلف. فكلّ نص له ميزة/ميزات معينة تفرض ذاتها أكثر من غيرها.

تحدث بعض الدارسين عن عملية التفاعل التي تنشأ بين المتلقي والنص كدافع هام نحو متابعة القراءة، إذ يرى وولفجانجإيزر في كتابه "فعل القراءة" أنّ العمل الأدبي قائم على قطبين، أطلق على أحدهما القطب الفني وهو نص المؤلِّف، والقطب الجمالي وهو "التحقق" الذي ينجزه القارئ. فقد يثير مؤلَّفٌ جديد المتلقيَ/الباحث، مما يفرض عليه البحثَ عن مسبّبات هذه الإثارة، ودوافع تفاعله معها، وقراءة النص عبر آليات تتيح له رؤية صلابة النص وترابط الجزء بالكل والكل بالجزء. فالتفاعل الذي تحدَّث عنه إيزر هو تفاعل متبادل، ولا يقتصر على القارئ المتلقي. النص مخلوق قام به مؤلِّف ما، ويبقى هذا النص ميتا حتى يقوم القارئ بإحيائه دون تناسي دور المؤلِّف، من هنا فإني أرى أن ما أقوم به هنا هو عملية "التحقّق" التي ذكرها إيزر، ولم يتأت ذلك إلا من خلال هذه المواجهة بيني وبين النص التي ولّدت شرارة التفاعل، وقد وجدتُ أنّ هذا المنجز جدير بالبحث والدراسة.

كتاب "الطيور تعود إلى أعشاشها" مجموعة قصصية للكاتب الدكتور وجيه ضاهر، المحاضر الجامعي، والباحث في طرق تدريس الرياضيات. بالرغم من أن هذه المعلومة لا تزيد ولا تقلّل من شأن المنتوج الأدبي، إلا أني أعترف أنّ هوية الكاتب وثقافته وعلومه تهمني وتثير لديّ بعض التساؤلات قبل ولوج النص وقراءته. فقد علمتنا التجارب أنّ الكاتب لا بدّ أن يستفيد من علمه ومن ثقافته، فقد نجح الأديب يوسف إدريس، على سبيل المثال، في رسم صورة المرأة التي أجهضت جنينها في رواية "الحرام"، نظرا لكونه طبيبا، ووظف تشيخوف علومه الطبية في رسم الشخصيات، وتمكن توفيق الحكيم من عرض صورة لسكان الريف وهم يواجهون القوانين المجحفة في "يوميات نائب في الأرياف"، نظرا لدراسته "القانون"، لكنهم ما كانوا لينجحوا جميعا لولا قدرتهم على التخييل، والأمثلة على ذلك عديدة. الحقيقة الوحيدة التي أستطيع أن أقولها:إن ضاهر كاتب يتّبع طرقا مغايرة في كتابة القصة القصيرة.

إن الكتابة فعل عاطفة وعقل وخيال، فالعاطفة والخيال عاملان مترابطان جدا لا يمكن الفصل بينهما بحيث تتحرك العاطفة تماثلا وتماهيا مع مشهد أو فكرة، ثم يقوم العقل بهندسة العاطفة ومدها بالعمق وطرحها مدعمة بتخييل يأخذ الفكرة من جذورها ومن منبتها لتخاطب القارئ وتخترق وجدانه. فإن كانت العلوم عامة، والرياضيات خاصة، لها إبداعاتها وإنجازاتها في خدمة حياة البشر فإن وجيه ضاهر الباحث في علم تدريس الرياضياتقد أدرك دور الكلمة الأدبية في خدمة البشرية. فأي أساليب اتبع؟ وهل نجح في ذلك وكيف؟ سنحاول الرد على هذه التساؤلات وعلى التساؤلات التالية التي نراها هامة في كل مرة نتعامل فيها مع نص جديد:هل يجب تناول أي مُنتَج أدبي بناء على ما تقوله النظريات الأدبية؟ أم يجب الاعتماد على الذوق الأدبي الذي يتحلى به الباحث بعد التجريب والمران؟ أم الاعتماد على كليهما معا؟ وربما السؤال الأهم الذي يجب أن يطرح هو: هل عملية تناول نص ما بالدرس والتحليل عملية سهلة؟ وهل تنطبق مقاربة نص ما ومعالجته على كل النصوص؟ إذا كان ذلك كذلك فأين الفرادة؟

تكثيف القصّ وتهشيم الزمن

إن عملية قراءة أي نص تختلف من قارئ لآخر، كما ذكرنا، وذلك وفق ثقافة المتلقي والهدف الذي ينطلق منه، فهناك من يقرأ من أجل المتعة، وهناك من يبحث عن

الاستفادة من المعلومات الجديدة التي يزوّدها به النص، وهناك من يبحث عن فرادته، وعن اللغة ومستوياتها، وعن مدى نجاح الكاتب في جذب القارئ وتفاعله عبر بنائه النص بناء فنيّا محكما، متوقفا عند التقنيّات التي يوظفها الكاتب.

يلفت نظر القارئ أنّ الكاتب وجيه ضاهر لا يلتزم بالمبنى الكلاسيكي، وذلك منذ القصة الأولى، "الصبي والأطفال"،إذ يعمد إلى عملية تهشيم الزمن، وتوظيف تقنيّات حداثية تساهم في ذلك: الذكريات، الفلاش باك، المونولوج، المناجاة، الأحلام، الهلوسات والتداعي، مما يساهم في تغطية مساحة زمنية أوسع، عبر القليل من الكلام والكثير من المعلومات. يساعد في ذلك، أيضا، توظيف أكثر من ضمير وأكثر من زاوية نظر، كما يُبيّن لنا الاقتباس التالي: "الساعة الثامنة مساء من ذلك اليوم نفسه، يتسلق صبي عمود الكهرباء نفسه [...] يؤلمه احتكاك جسده بالعمود. ينرفز بسبب الأعمدة الطويلة. لكن الأعمدة الطويلة أفضل لتعليق الأعلام عليها، يهمس لنفسه، يرفرف عليها عاليا ويُتعب الجندي الذي يصعد العمود لينزله. ترى هل يجبر الجنود عندئذ أحد سكان المخيم على تسلق العمود وإنزال العلم؟ لن يقبل الشباب إنزاله وقد يهاجمون الجنود أو يهربون من وجوههم [...]. ما أجمل الخالة أمينة وهي تتعشبق على عمود الكهرباء في المرة الأخيرة التي ارتفع بها العلم عاليا عاليا". (ص16)

نلاحظ أعلاه أن الكاتب يتنقل بين الضمائر بسلاسة، فضمير المتكلم يتماشى أكثر مع تقنيّات تيار الوعي الذي يساهم في انسياب الأفكار والأحداث وتداعيها، وكشف ما يدور في ذهن الشخصية، عبر الفلاش باك والمونولوج والمونولوج المروي/المسرود (لكن الأعمدة الطويلة أفضل لتعليق الأعلام عليها، يهمس لنفسه، يرفرف عليها عاليا)،وهو مونولوج يمتزج فيه صوتان: صوت السارد وصوت الشخصية، والكلام المباشر وغير المباشر. هذه التقنيات التي أشرنا إليها أعلاه، مجتمعةً، تسهم فيالتنقل بين الماضي والحاضر، وفي بلورة الفكرة المركزية للقصة، بعيدا عن المباشرة. أما ضمير الغائب فيساعد على كشف الصورة الخارجية عبر السارد الرئيسي، وبالتالي يقف القارئ وجها لوجه أمام صوتين، لا صوت واحد: أحدهما يعبّر عن الداخل والآخر عن الخارج، فتكتمل الصورة، حتى لو حمل الصوتان نفس الرسالة، فإن الواحد منهما يدعم الثاني، في مواجهة الصوت الثالث؛ صوت جنود الاحتلال .

من اللافت، فعلا، أنّ القارئ يتابع الأحداث كلها من أولها حتى نهايتها، ويطّلع على المواجهات مع الجنود، دون أن يكون هناك وجود فعلي لهم، فهم موجودون، حتى أثناء غيابهم، في ذهن الطفل الذي يصرّ على التحدي ورفع العلم وكيد هؤلاء الجنود الذين قد يظهرون في أي لحظة. ولكي يضفي على القصة ثوب الواقعية عمد الكاتب إلى توظيف الأغاني التي ينشدها الأطفال في مناسباتهم لتحمل صوتهم، صوت المستقبل، وهم يواجهون آلام الحزن والفراق، دون أن يفقدوا الأمل، فكانت أناشيدهم أشبه بأناشيد الكوروس في المسرح اليوناني القديم تضيء بعض الزوايا الغامضة، وهي هنا تحمل صوت الناس كل الناس.

ساهمت هذه التقنيّات، في تكثيف الأحداث، وفي تغييب شبه كامل للحوارات المباشرة، من ناحية،وفي الابتعاد عن السرد الكلاسيكي الذي يلتزم بتنظيم الزمن وفق منطق التسلسل من الماضي فالحاضر، من ناحية أخرى، حيث يتولى عادة، ضمير الغائب مهمة السرد ذي الصوت الواحد، فيما يغيب السرد الديالوجي المتعدد الأصوات .لكنّ هذه التقنيات، هنا،تفسح المجال لعرض وجهات نظر متعددة بعيدا عن المباشرة،وتعملعلى تمكين القارئ من مشاركة الشخصية المركزية/الطفل، مخاوفها ومشاعرها وقلقها وطموحها وجرأتها أثناء عملية تعليق العلم على قمة عمود الكهرباء، وما يتخلل ذلك من مخاطر قد تودي بحياته، في مقابل تحقيق نصر أكبر؛ بقاء ِالعلم مرفرفا في الأعالي.

قام الكاتب بتوزيع قصته إلى ثلاث فقرات وفق إشارات زمنية: "صباح أحد الأيام"، "الساعة الثامنة مساء"، "صباح اليوم التالي" مع بداية كل فقرة بهدف الحفاظ على مبنى ذهني سليم، من ناحية، فلا يتوه المتلقي في خضم الأحداث، من ناحية ثانية. كنت أتمنى على الكاتب ألا يلجأ إلى هذه التقنيّة لأنها تمس بعصب المبنى الفني للقصة التي نجحت في ملامسة عواطف القراء عبر أسلوب تيار الوعي، فكانت الإشارة إلى الزمن أقل فنية من تلك التقنيّات.

يميل وجيه ضاهر، كما أسلفنا، إلى الكتابة المغايرة غير المألوفة، فما يحدث على الأرض غير مألوف وغير طبيعي لدى من يعيش حياة طبيعية. يتابع في قصصه التركيز على الذهن وطرح صور ومشاهد تميل إلى التجريد كما في قصة "الشهادات لم تعد تحتمل ظلمة الأدراج". يبدأ القصة بقطعة أطلق عليها "المدخل" وهي عبارة عن "النص الموجود على أحد الأجداث في غزة الفوقا"، فيه حزن وأسى يلخصانالمفارقة التي يعيشها ابن غزة الذي يعمل في داخل إسرائيل، ويقوم ببناء بيوتها ليكون مصيره الموت.

يقسم الكاتب قصته إلى مقطوعات قصيرة، كل مقطوعة عبارة عن فكرة أشبه بكتابة خاطرة تبدو للقارئ،في قراءتها الأولى منفصلة تماما عن بعضها، لكن بعد الدخول في التفاصيل، وإعادة القراءة من جديد يجد المتلقي أن هناك خيطا متينا ذهنيا يربُط بين المقطوعات، رغم الرابط الواهي زمنيا. لم يدخل في خلدي أثناء محاولة فك أسرار النص وتحليله سوى أن الحياة مترابطة بقدرما هي مفككة، وثمينة بقدر ما هي رخيصة، وجميلة بقدر ما هي بشعة. هذه المفارقات الحياتية وجدَتْ لها ترجمة في هذه القصة؛ في مبناها وفي مضمونها، تماما كما في الجملة التالية: "الاستعداد للموت يجب أن يكون كالاستعداد لكل شيء مهم". (ص35)

يرى الكاتب أن الوصف الخارجي لا يفي بالغرض، ولا يستطيع أن يعكس صورة المعاناة التي يتعرض لها الشعب الفلسطيني، فما يتعرضون له من ألم نفسي، ومن عذاب يفوق ما تراه العين بكثير. تتحرك الشخصيات في شبه فراغ، في كثير من الأحيان، وكأنّ المكان قد فقد معالمه رغم وجوده، فلا نكاد نراه، ولا نلمس معالمه، اللهم إلا رائحة الموت. أما أكثر المشاهد التي تتحرك أمام المتلقي فهي كوابيس تعيشها الشخصيات في الحلم وفي اليقظة.

ما كانت لتتحقق عملية التكثيف لولا اعتماد هذه القصة على الذهنية وعلى الفلاش باك والتصوير السريع لأحداث تراكمت، فوق بعضها، كما تراكمت جثث القتلى إثر مجزرة راح ضحيتها عمال فلسطينيون يخرجون قبل بزوغ الفجر للبحث عن لقمة الخبز، فسار السرد سريعا وكثيفا بين الوعي واللاوعي، بين الضياع والصحوة وبين الإدراك والهلوسة. فتكونت لدى القارئ صورة مرعبة تهزه من الأعماق حتى ليشعر أن ما يسرد هو محض واقع لا دور للتخييل فيه، لدرجة تجعله يتمنى أن تتوقف "المشاهد" المؤلمة كي يستعيد قدرته على التنفس والخروج من أجواء القصة.

واقع أم فانتازيا؟

لا يكتفي وجيه ضاهر في توظيف أساليب وتقنياتتيار الوعي، فنراه يميل إلى الفانتازيا والواقعية السحرية كما ينعكس في قصة "القرنفلة البيضاء". يقع القارئ على صور ومشاهد أشبه بالرسم التجريدي. أنا لست خبيرا بالرسم التجريدي، ولا بفن التصوير، من كان خبيرا بهذين الفنين فسيجد مادة دسمة للتعامل معهما.

يتوه القارئ أمام كثافة المشاهد والصور والحوارات القصيرةالذهنية، ويدخل في مواجهة مباشرة مع السرد منذ السطر الأول منه، هي مواجهة شبيهة بالصدمة تحتاج إلى بعض الوقت لاستيعابها كي يتمكن من متابعة القراءة. تسرد الشخصية المركزية، الزوجة "ثريا"، أحداثا عجائبية غرائبية تدعو المتلقي إلى التفكير والتحليل في محاولة منه لإدراك ما يدور، فتختلط عليه الأمور، لكن الأمر اللافت أنّ المتلقي يتابع القراءة في محاولة منه لربط الخيوط، يدرك بعضَ التحركات والإشارات، وقد يعتقد أنه نجح في التقاط بعضها، ويقف عاجزا عن بعضها الآخر، لكنه لا يشعر بالملل. فهل يمكننا أن نتفق مع رولان بارت فيما ذهب إليه في دراسته "لذة النص"؟

إن مثل هذه القراءة أقرب إلى عناء القراءة منها إلى اللذة، ومع ذلك نتابع القراءة لنلتقي بما يشبه الرؤيا.في خضم القراءة حاولت أن أجد الخيط الذي يربط بين الأحداث والعنوان وأسماء الشخصيات، في محاولة لفك الرموز والدلالات. فالعنوان، عادة، يحمل ملخص الأحداث ورسالتها وقد يتضمن إشارة إلى معنى النص ودلالته، فالقرنفلة البيضاء في إيحائها المباشر تحمل دلالة جميلة في لونها وشكلها ورائحتها، و"ثريا" الشخصية المركزية، هي مصدر النور والإشعاع، وهي الشخصية الوحيدة التي أعطاها الكاتب اسما، ما دفعني إلى البحث عن سر اختيار هذا الاسم بالذات. أما بقية الشخصياتفلم تنل أي اسم، واكتفى الكاتب باختيار كنية تتناسب مع صورتها الخارجية: "الذي وجهه مغطى"، "الذي على وجهه شامة "، و"القصير"، أو عُرفت وفق موقعها من الشخصية المركزية، مثل "الزوج"، "البنات"، "الأبناء" و"النائحات". فهل تأثّر وجيه ضاهر بكافكا؟

إننا نميل إلى الاعتقاد أن ضاهر يذهب إلى التعميم، ليجعل من الشخصيات رموزا تشير إلى العام لا إلى الخاص، فحكاية هذه المرأة وهذا الزوج هي حكاية كثيرين من أبناء هذا الشعب.مثل هذه الكتابات تؤكد أكثر من غيرها على ضرورة قراءة النص أكثر من مرة لعل القارئيتمكّن من لملمة الخيوط، وتحليل الأحداث وربطها ببعضها. فكل قراءة جديدة تكشف سرا جديدا من أسرار الكتابة لم يكتشف من قبل.

ولتيسير ما سنقوله بصدد هذه القصة نقتبس افتتاحيتها: "وضعوا على جسدي قرنفلة بيضاء وغطوه بثوب من الكتان خفيف، وأتى زوجي وخاطبني: يا ثريا قد كنت أمّا لنا كلنا، وكنتِ لي إلفا، يا ثريا إن أولادك الرضّع سيفتقدونك فلا تكوني، وتمتد أيديهم لتمسك بحلمتيك فلا يمسكون إلا الوهم، يا ثريا لولا احتياج الرضّع إلى صدر ينطوون عليه لاصطحبتك في لحظات سكونك كما اصطحبتك في لحظات اضطرابك." (ص20)

تتابع الشخصية المركزية في سرد الأحداث، وتأخذنا معها إلى عوالم عجيبة غريبة، بين الحياة والموت، حيث بكاء الصغار والنائحات على الأم "ثريا"، التي تتابع هي ذاتها في نشر تفاصيل ما تمرّ به. نتوقف معها لنطّلع على مشاهد لا تمتّ إلى الواقع بصلة. يتساءل المتلقي هل نحن أمام مشاهد حقيقية؟ أم هي هلوسات وكوابيس ورؤى ترويها لنا الشخصية المركزية؟

تروى كل الأحداث بضمير المتكلم، ويسير المتلقي في إثر السرد الذي يبدو حياديا، رغم أن الشخصية المركزية هي التي تتولى السرد منذ السطر الأول وحتى نهاية القصة، وتفسح الشخصية المجال لظهور أصوات أخرى تحمل وجهات نظر مغايرة لها تضفي على الأحداث صبغة واقعية رغم بعدها التام عن الواقع.

من أهم هذه المشاهد الطويلة التي تروي "ثريا"/ الشخصيةُ المركزية تفاصيلَها هي قصة إحاطتها بثلاثة رجال يبدو للقارئ أنهم محققون يبحثون عن الزوج الذي أعلن للمجتمعين في بيته أنه مضطر أن يترك المكان، لتبدأ إثر ذلك مرحلة التعذيب الطويلة بهدف إجبار "ثريا"على الاعتراف بمكان اختفاء الزوج. تتمكن أثناء التعذيب من الوقوف ورؤية ما لا يرون: "وقفت وكان وليفي واقفا على تلة يحيط بها دغل، يمسك بإحدى يديه ترسا وباليد الأخرى بندقية ذات مسورة رفيعة، أكياس رمل كانت تحيط به ودخان كثيف تصاعد حوله، كان ينادي رفاقا غير منظورين، وطائرة هليوكوبتر صغيرة تحلق فوقه ولا تراه...". (ص24)

لا يكتفي المتلقي بالقول بأن القصة تمزج بين الواقع والخيال، فهذا شأن كل عمل تخييلي، لكن الأهم هو أين الواقع وأين الخيال؟ وكيف يمزج الكاتب بينهما؟ وهل تمكّن من الإمساك بتلابيب القارئ لمتابعة القراءة؟ يكشف التحقيق أنّالزوج ملاحق من الجيش في أعلى التلة، ولكنّ قدرة "ثريا" على رؤية ما لا يراه الآخرون، ساعدها على إنقاذه من خطر الطائرة التي كادت أن تصطاده وتلقي القبض عليه،حتى وهي بين يدي ثلاثة من الرجال المحققين، وسارعت إلى تحذيره من رأس صغير كان يطل من الطائرة بعينيه الصغيرتين، فصوّبَ الزوج البندقية إلى الطائرة لتسقط العينان الصغيرتان في جحرها، وينجح في العودة إليها وينقذها من أيديهم وقد همّوا على اغتصابها لإجبارها على الاعترافبموقع اختبائه. تنتهي أحداث القصة والزوجة في الغرفة حيث سجّي جسدها، وقد وعدته بأن يعودا ويلتقيا، بعدها يقوم الأولاد بحمل جثمان أمهم وحدَهم دون أبيهم الذي "رحل عنا مبكرا" ووضعه في التابوت.

ينفتح النص على تأويلات عدة منها أن الفلسطيني يموت ولا يموت،وأنه يتابع في المقاومة حتى بعد موته، وينجح حتى أثناء موته من إنقاذ محبيه وأهله ووطنه. قصة تمزج بين الواقع والفانتازيا؛ واقع الفلسطيني الذي يواجه الاحتلال، ويتعرض لشتى أنواع التعذيب دون أن يفقد الأمل، وهو في صراعه المتواصل أشبه بطائر العنقاء الخرافية التي تقوم من رمادها لتبعث من جديد، أو هو طائر الفينيق. أما هذه الغرائبية فهي جزء من واقع الفلسطيني الذي مر بمراحل من القتل والتهجير والتعذيب دون توقف، ليؤول مصيره إلى الموت الجسدي لا الروحي والمعنوي. أما موت هذه الأعداد جسديافلم ينجح في القضاء على القضية الأهم: الإيمان بالتحرر وتحقيق الأهداف.أما اختيار "القرنفلة البيضاء" فلأنها بؤرة من النور والأمل ورؤية ما في الحياة من جمال رغم قتامتها وصعوبتها. تنقل القصة صورة صعبة جدا عن واقع الفلسطيني، لكن هذه الصورة لم توصل أحدا إلى موقع الضعف أو الاستسلام، فالموت، كما بدا لي، هو الحياة بذاتها، يموت الفلسطيني ليحيا، يموت البعض ليحيا آخرون ويتابعوا المسيرة.

لست بحاجة لقراءة تفاصيل العجائبية والغرائبية ولا الواقعية السحرية لتحليل هذه القصة وفهم دلالاتها وأسرارها وفك رموزها، ما يحتاجه المرء أثناء قراءة هذه القصة وغيرها أن يصدق ما يقرأ، وأن يغور في تفاصيل النص ذاته دون العودة إلى التنظيرات، رغم أهميتها، وان يتعامل مع النص كواقع يعيشه الفلسطيني في مواجهة آلة الحرب، وقدرته على الوقوف في وجهها بقوة وصبر وأناة.

مفردات، تعابير وجمل مهشمة

لا يكتفي وجيه ضاهر بالكتابة التجريبية، ولا بتوظيف الفانتازيا أو الكتابة الغرائبية، فنراه يبني قصة لا تعتمد على حدث ما، ولا على سرد يلتزم بمبنى زمني ما، ولا على شخصية مركزية تتبعها أو تسير معها شخصيات ثانوية، بل نراه يكتب قصة بعنوان "أصوات على السطح" تستحق وقفة مطولة أكثر. تمتد على أربع صفحات، هي عبارة عن جمل قصيرة جدا، قد تتكون من مفردة واحدة أو مفردتين أو جملة قصيرة لا تتعدى السطر، غير مرتبطة بما سبقها أو بما يتلوها برباط لغوي. هذا المبنى وهذا "السرد" وغياب أهم عناصر القصة القصيرة: العرض والنمو والارتقاء، تجعل المتلقي يتساءل أثناء عملية القراءة: هل يمكن أن نطلق عليها قصة؟

لا يلتزم الكاتب بأي من مركبات القصة القصيرة المعهودة أبدا، ومع ذلك هناك خيط قوي جدا يمسك بتلابيب القارئ الذي يتابع القراءة حتى آخر لفظة،إذ يتمكن هذا النص، رغم تفككه اللغوي (المقصود)، وانعدام السرد التواصلي، وخلوه من الوصف التفصيليأن يخلُق عالما قصصيا، وأن يجذب القارئ لمعرفة النهاية، وربط الأحداث، إن جاز أن نسميها أحداثا، بالعنوان، أو مع بعض الأسماء التي يبذرها الكاتب في حقل من الكلمات المبعثرة بصورة تبدو عشوائية، ولكنها في الحقيقة ليست عشوائية.

إن اختيار هذا العنوان ، "أصوات على السطح" يحث المتلقي على التفكير العميق، أثناء عملية القراءة، في دوافع اختيار هذه التسمية. يوحي العنوان، قبل ولوج النص وقراءته، بأنه يحمل معنى مباشرا، وبالتالي على القارئ أن يبحث عن هذه الأصوات، وعن مصدرها، مكانها، ودافعها. وليست التسمية المباشرة، برأيي، تعني ضعف المعنى، بل قد تكون المباشرة، في العنوان بالذات، هي دلالة على تفكير عميق، يأتي بعد لأي وتعب فكريّ لتحثّ القارئ على مشاركة المؤلف في التفكير والتفاعل.

يشير مجمل نص "القصة" إلى وجود أصوات على السطح، لكن هذه الأصوات التي تصلنا عبر صور مكثفة وكلمات مبعثرة هي أصوات مرعبة، وصور متحركةتُرسل، معا،معلومات متلاحقة تخترق القارئ، وتحرك كل حواسه. فإن كان الشعر الجميل، كما يقول البعض، له تأثير فسيولوجي، يثير المعدة واللسان ويحرك الدورة الدموية وتقشعر له جلدة الرأس، فإن هذا النص بعيد كل البعد عن اللغة الشاعرية لكنه يحرك الحواس ويستفزها جميعها ويثير المشاعر، ويخلق تفاعلا عميقا بين النص والقارئ.

نحاول من خلال الاقتباس التالي الذي يفتتح فيه الراوي عملية السرد تيسير فهم ما قلناه أعلاه: "طائرة مروحية. مشاة. سيارات. شارع رئيس. جنود مشاة. جنود في طائرة. برقين. نادر خمايسي. شمس. سطح بيت. قرية. طرق دبقة. امرأة. شابان على سطح بيت. ناصر كمنجة. طائرة مروحية تتجه إلى برقين. بنت قالت لأمها: يمة، الشاي غلى. أطفال دون الخامسة. امرأة تصعد درجا. جنود مشاة يسلكون طريقا تخفيه الأشجار إلى القرية.". (ص94)

بعد قراءة النص أكثر من مرة يتبين وكأن المؤلف قام بكتابته مُنظّما، لغويا وفكريا وزمنيا، ثم حمله بكفة راحته وقام ببعثرته على الورق، تاركا هذه الكلمات ملكا للقارئ كي يقوم هو بتركيبه وفق ذكائه وتجربته.إذن وجيه ضاهر لا يلتزم التزاما مطلقا بأصول كتابة "فن القصة"، ومع ذلك فإنّ قارئ النص يتفاعل مع ما يقرأ، ويشعر بتشوق لمعرفة ما سيؤول إليه النص. فإنْ تحدّث البعض عن "موت النص"، و"موت المؤلف"، وهناك من يتحدث عن "موت الناقد"، فإني أدعو القارئ، ولو إلى حين، إلى الابتعاد، قليلا، عن هذه الرؤى الفلسفية ومعالجة النص كما طرحه كاتبه وجيه ضاهر، فلعله يبعث من جديد أفكارا أخرى تلغي بعض ما قاله المنظرون لنؤكد على وجود نص، قارئ ومؤلف في وحدة مترابطة ومتنافرة في آن معا؛ مترابطة في حقيقة التفاعل وفي حقيقة اكتمال عمليتي الكتابة والقراءة، ومتنافرة في حرية النص وانطلاقه، وحرية المؤلف في طريقة عرضه ورؤيته، وحرية القارئ في محاورة النص وتأويله وفق اتساع ثقافته ومعارفه، دون اتباع أي نظرية، ودون التقيد بأصولها تقيّدا متزمتا، ودون تقييدها بمدرسة أدبية أو بأي جنس سردي حكائي، أو بأي مسمى مهما كان.

وجيه ضاهر قبل أن يكون كاتبا فهو إنسان يعيش مثل بقية أبناء شعبه،يراقب ما يحدث وما يتحرك على الأرض ليشهد على ظروف أقل ما يمكن أن يقال فيها إنها غير عادية، ولا تشبه أي واقع لأي شعب آخر مهما كانت ظروفه صعبة، فالمواطن العربي هنا يعيش المتناقضات ويقبل مُكرهًا بالمفارقات واختلال القيم والمبادئ، هذا الواقع المُشوّه لا تستطيع الواقعية التقليدية أن تعبر عنه ولا أن ترسم كل معالمه. هو واقع عجيب غريب أقرب إلى الفانتازيا وأوسع من المُتخيَّل القصصي التقليدي. يسير فيه المرء فاقدا القدرة على رسم خطواته الصغيرة التي قد لا تسعفه في الوصول إلى بيته القريب، أو لقاء أبنائه أحياءً. أكاد أجزم أنّ الكاتب لا يبحث عن الكتابة التجريبية المغايرة بقدر ما تنقاد هي إليه كمرآة ترافقه حيثما سار، وتقوم ببث ما يراه بثا حيا ومباشرا. فإذا به واقع مفكّك وغامض يسير فيه المرءعلى رجل واحده ويرى بعين واحدة ويسمع بأذن واحدة مبتور اليدين واللسان، فهل يتحدث عن الحب وعن المستقبل المزهر وعن الأبناء والأحفاد؟!ومع ذلك ما زال واثقا بقدراته على تركيب الجسد وإعمار الروح بالبسمة والفرح.

أشرنا أعلاه إلى عناصر السرد الحكائي ومركباته، بشكل عابر، ولم نتطرق إليها بالشرح والتفصيل، ودور الواحد منها في عملية بناء الحكي، وهو ما لن نفعله في هذه المقالة بالذات، لكن هناك ما يسمى "زاوية النظر" وأهمية توظيف الضمير المناسب لعملية السرد، ودور الراوي في نقل الأحداث. من ينعم النظر في السرد هنا فلن يعثر على صوت الراوي المباشر بالطريقة التقليدية، رغم إشرافه الكلي، فهو هنا يقوم بدور المصوّر وراسم الديكور، والمراقب من قريب ومن بعيد، وكأننا نسمع أحيانا صوتا صارخا وأحيانا صوتا هامسا، دون أن

يتدخل مباشرة في تعليق هنا وآخر هناك، وكأنّ الراوي تخلى عن دوره وسلم الدفة للقارئ يتابع السرد.

وهناك في القصة، عادة، حوارات بأنواعها المختلفة التي تعمل على إبراز أكثر من صوت وأكثر من لغة، لكن في هذه القصة يبدو أنّ الكاتب قد تنازل عن دور الحوارات المعهودة، ومع ذلك، ورغم عدم وجود حكي متسلسل، إلا أننا نعثر على حوارات سريعة دون أية إشارة إلى صاحب الصوت: "أصوات على السطح. صوت شرب الشاي. لا يمكن اتقاء الشمس على السطح. لننزل عن السطح. لم ننته من شرب الشاي.". (ص95) إنها كاميرا المصور تلتقط الصور والحوارات والمشاهد المترابطة بقدر ما هي مفككة ومتباعدة، وحوارية بقدر ما هي صامتة.

كما اعتدنا في تحليلاتنا للشخصيات القصصية أو الروائية أن نربط بين الشخصيات والبيئة والراوي والمكان والزمان حتى نتمكن من التشخيص وتحديد هويتها ومميزاتها الداخلية والخارجية. أما في هذه القصة فإن الكاتب لا يعمد إلى تحديد أو تفاصيل عناصر القصّ ومركباتها كي ندرس الشخصية/ الشخصيات سواء كانت مركزية أو ثانوية نامية، مركبة أو سطحية، فالشخصيات هنا، كما المفردات والتعابير إشارات وبرقيات متراكمة.

يعمد المؤلف إلى توظيف الجمل القصيرة التي قد تقتصر على كلمة واحدة، والتقليل من الحوار المباشر، فالجمل القصيرة تبرز عملية تسارع الأحداث وتتاليها وتكثيفها، وبالتالي عدم تمكن هذا الإنسان، في ظل هذه الظروف، من تنظيم حياته لأنه لا يملك القدرة ولا الإمكانية لبناء حياة منظمة، لأن "المفاجآت" قد تلغي كل ما خُطّط له. أما الحوارات المباشرة فهي، على أهميتها، ليست بقادرة على القيام بدور المونولوج والمناجاة والكوابيس، فهذه التقنيات أكثر قدرة على الغوص عميقا في النفس.

خلاصة

خصص الكاتب مجموعة كاملة للحديث عن معاناة الشعب الفلسطيني اليومية وهو يقارع المحتل، ففي كل قصة هناك جنود، وهناك أطفال، وهناك نساء وعجائز من الرجال والنساء. وفي العديد منها هناك شباب ورجال مطاردون، يبحث الجنود عن المقاتلين، يدخلون البيوت والقرى والتجمعات السكانية، ولا يتركون موقعا إلا ويعيثون فيه فسادا وخرابا، يرتعب الأطفال ويبكون ويصرخون، وقد يتعرضون هم أنفسهم، مثلما يتعرض الكبار للضرب والتنكيل، وقد يشهدون بأم العين مقتل أحد أفراد العائلة.

هذا الواقع يخلّف ندوبا تغور في النفس عميقا، فكان من الطبيعي أن يلجأ الكاتب إلى كشف ما يمور فيها من أفكار وهواجس، وما يتعرض له الفلسطيني من مآس وأوجاع، وهو يرى أرضه تسلب وبيته يهدم وأحباءه يقتلون، فكان التركيز على الداخل معادلا لآلام الجسد، وقد يفوقه. من هنا نرى إلى ميل المؤلف إلى اعتماده تيار الوعي الذي يوظف تقنيات وأساليب تبرز وجع النفس وآلامها، فيقع القارئ على كثير من مشاهد الهلوسة وأحلام اليقظة والكوابيس التي تنقل آلام النفس وعذاباتها.

رأينا الكاتب يعمد، في بعض قصصه، إلى توظيفالجمل القصيرة. إنّ توظيفها، بهذا الشكل، يلغي مفعول التنوّع اللغوي المألوف الذي تحدث عنه باختين وغيره، فلا مجاللتفحص المستويات اللغوية وقربها أو بعدها من شخوص القصة، فالشخصيات لديه لا تحمل مواصفات خارجية، لأن التركيز ينصب على الهواجس والأفكار الداخلية، التي تخلق توترا لدى القارئ وتفاعلا سريعا عبر ما تبثّه الصور المتقطعة. ويكاد ينعدم الوصف التفصيلي المسهب، وبالتالي تخلو قصص وجيه ضاهر من النبرة الخطابية التحريضية التقليدية. أما التحريض والإثارة فتبرز من خلال "الفلاش" والصور المتسارعة غير التفصيلية.

يقودنا ما قلناه أعلاه إلى الحديث عن اللغة، واللغة هنا لا تحتمل التحليل المعهود الذي تحدث عنه المنظرونمن أمثال ميخائيل باختين، إذ يمكننا أن نسمع أصواتا، وأن نرى مشاهد متقطّعة، وأن نرى شخوصا تمر أمامنا سريعا. هذه الأصوات والمشاهد والشخوص عبارة عن قطع فسيفسائية صغيرة مترابطة بقدر ما هي مبعثرة، لأن النص في كليته يعتمد على القارئ الذي تلقى عليه مهمة جمع هذه القطع وإعادة تركيبها. فاللغة لا تعتمد على الترميز أو الزخرف ولا على البعد الشاعري، بل إن المفردة والتعابير والجمل القصيرة تنقل إحساسا إلى القارئ كي يتابع القراءة، يتأتى كل ذلك بعيدا عن الخطابات التحريضية أو السرد المركب أو الوصف المفصل.

بالرغم من أن الكاتب يوظف الفانتازيا والغرائبية في كتاباته إلا أننا نرى أنه لصيق بالواقع لا يبتعد عنه قيد أنملة، بل إن الغالبية العظمى من قصصه مستمدة من واقع الفلسطيني في غزة وقرى الضفة ومدنها ومخيماتها، يصور ما يحدث هناك من أحداث ومن مواجهات بين الأطفال والشباب والنساء مع جنود الاحتلال بدقة متناهية، فكأنّ الواقع الفلسطيني بات غريبا وعجيبا إلى هذا الحد،أما قدرة الصبي والمرأة العجوز على مواجهة الجندي المدجج بأحدث أنواع الأسلحة فقد بات أشبه بعالم عجائبي.

تتمركز معظم أحداث القصص، كما ذكرنا، في الصراع الفلسطيني مع المحتل الإسرائيلي، وبما أنّ الواقع أليم جدا وموجع جدا، حيث القويّ على أرض الواقع هو الجيش المدجّج بأسلحة حديثة قادرة على قهر الناس وسجنهم ومصادرة أرضهم وقتلهم، فإن الصراع يتحول، في هذه الحالة، إلى القدرة على التحدي والصمود في وجه هذه القوة، وعدم الاستسلام. ما يعني أن المواجهة تتحول من الخارج إلى الداخل للحفاظ على نفوس سليمةقادرة على متابعة مشوار الحياة. من هنا نرى إلى أهمية إبراز الجانب النفسي، لا كعامل تعويض فقط، بل كجزء من الواقع. فالمواجهة الجسدية مرهونة بالقدرة على المواجهة النفسية، كما هي تماما على أرض الواقع، أما التخييل الذي يوظفه الكاتب هنا في هذه المجموعة فهو لدعم الواقع.

إن عملية قراءة وتأويل نصوص شبيهة بكتاب "الطيور تعود إلى أعشاشها" ليست عملية سهلة، بل تترك الدارس مذهولا ومحتارا أمام ما يقول، فإن كانت دراسات الباحثين والمنظرين عونا حقيقيا في هذه العملية المضنية فإن مران الباحث وتجربته ضروريان للقيام بعملية المقارنة مع مؤلفات أخرى، فنظريات الباحثين والمنظرين لا تزودنا بخصوصيات الفكر الفلسطيني وبإنجازاته الأدبية والفنية التي تحمل ختمه وهويته ❑❑

المراجع

إيزر، وولفجانج. فعل القراءة. ترجمة حميد لحمداني، والجيلاني لكدية. فاس: منشورات مكتبة الناهل، 1994.
إيكو، أمبرتو. "القارئ النموذجي". من كتاب نظرية الأدب: القراءة، الفهم، التأويل- نصوص مترجمة. ترجمة أحمد بو حسن. الرباط: دار الأمان، 2004. ص29-49.
باختين، ميخائيل.الخطاب الروائي. ترجمة محمد برادة. القاهرة: دار الفكر للدراسات، 1987.
بارت، رولان. لذة النص. ترجمة منذر عياشي. حلب: مركز الإنماء الحضاري، 1992.
بارت، رولان. نقد وحقيقة. ترجمة منذر عياشي. بيروت، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1994.
بيلي، انجيلا. "الواقعية السحرية كيف نفهمها". ترجمة خضير اللامي. مجلة الروائي، alrowaee.com/article.php?=298 24.12.2008
تنفو، محمد. النص العجائبي، مائة ليلة وليلة أنموذجا. دمشق: دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع، 2010.
حليفي، شعيب. شعرية الرواية الفانتاستيكية. الرباط: دار الأمان، الجزائر: منشورات الاختلاف، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2009.
خوري، الياس. "ملاحظات حول الكتابة القصصية، اللغة- الراوي- الكاتب". من كتاب دراسات في القصة العربية: وقائع ندوة مكناس. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1986.
درو، إليزبيث. الشعر كيف نفهمه ونتذوقه. ترجمة محمد إبراهيم الشوش. بيروت: مكتبة منيمنة، 1961.
السعافين، إبراهيم. تحولات الشكل في القصة القصيرة العربية. عمان: الأهلية، 2021.
صالح، بشرى موسى. نظرية التلقي – أصول وتطبيقات. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1999.
ضاهر، وجيه. الطيور تعود إلى أعشاشها. بيروت: دار الفارابي، 2022.
العيد، يمنى، "القصة القصيرة والأسئلة الأولى/اللغة/ الأدب/ الأيديولوجيا". من كتاب دراسات في القصة العربية: وقائع ندوة مكناس. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1986.
الغذامي، عبدالله. ثقافة الأسئلة. ط2، الكويت: دار سعاد الصباح، 1993.
غنايم، محمود. تيار الوعي في الرواية العربية الحديثة. بيروت: دار الجيل، القاهرة: دار الهدى، 1992.
غنايم، محمود. غواية العنوان. الناصرة: مجمع اللغة العربية، 2015.
كامل، رياض. المتخيل السردي العربي الحديث. عمان: الدار الأهلية، 2022.
هولب، روبرت. نظرية التلقي. ترجمة عز الدين إسماعيل. القاهرة: المكتبة الأكاديمية، 2000.
Barthes, Roland. 1977. “The Death of the Author”. In Image- Music-Text, Stephen Heath (ed.), New York: Hilland Wang. Pp. 142-148.

UNIVERSITY OF TORONTO

كلُّ نوافذِ العالمِ مفتوحةٌ لتراتيلِ النوّاب

سعد جاسم
العراق

- جنَّة هايكو مهداة الى روح الشاعر العظيم مظفّر النوّاب

❑ طائرٌ أعزل
دائمُ القلقِ والنشيج
العراقيٌّ في غربته
*
كلُّ نوافذِ العالم
مفتوحةٌ لتراتيلِهِ الشجيّة -
مُظفّر النوّاب
*
الطعناتُ تداهمُهُ بضراوة
فيصبحُ ناياً نحيلاً -
عودُ القصب
*
تبحثُ وحيدةً
في طُرقٍ موحشةٍ ،
امرأةٌ فقدتْ زوجَها في حربٍ عبثيةْ
*
في كلِّ الأوقات
تجلسُ بإنتظارهِ
أُمٌّ فقدتْ ولدَها في حربٍ منسية
*
تغمرُنا بالدفءِ والدهشة
ابطالُها لايكذبونَ علينا-
رواياتُ الواقعية السحرية
*
اتهاماتٌ مُتبادلة
شتائمٌ مُتطايرة
حبيبانِ ثملان
*
بمرايا النهر
عاشقٌ مجنون-
يريدُ امساكَ القمر
*
أَجنحةٌ للتحليق
جدرانٌ نستندُ عليها -
الأصدقاءُ الحقيقيون
*
تغارُ من رفيفِها
راقصاتُ الباليه -
فراشاتُ الحقولْ
*
يحرقونَ حقولَ الحنطةِ
قلوبُ النخيلِ يُقطّعونَها
وحوشٌ بلا قلوب .
*
ضحكةٌ صفراء
يُطلقُها مُرابٍ شرّيرْ
نصبٌ واحتيالٌ عَلَني
**
يطوي المدينةَ
شارعاً شارعاً من أجلِهُنَّ
بائعُ " الشَعَر بنات"
بموسيقى الأغاني المَرِحَة

يجذبُ أطفالَ المدينة
بائعُ " الآيسِ كريم "
*
يتبادلونَ الهدايا البسيطة
قلوبُهم لاتعرفُ المسافاتْ
أصدقاءٌ قدامى
*
عيونٌ شيطانية
تراقبُ حتى أنفاسَنا
عالمٌ بلا حريّة
*
تركتِ الطيورَ الجائعة
تأكلُ من حقلِ الحنطة
فزّاعةٌ طيّبةُ الجذور
*
يهاجرُ حُراً / مُتمرّداً
على الطغاةِ والصيّادين
طائرُ الوز العراقي
*
يخافونَ نباحَ الكلابِ
اصواتَ العواصفِ والرعود
طغاةٌ لا يخافونَ الله
*
غريبُ الأطوار
يضحك بسخريةٍ ومرارة
طائرُ " الكوكوبارا "

اسماؤهم محفورة
فوقَ جذورِ الأرض
الشهداءُ المَنْسيونْ
*
دماءُ الشهداء
ينابيعٌ تروي
جذورَ الأرض
*
جذورُ الأرض
ذاكراتٌ تختزنُ
كلَّ أسماءِ الشهداء
*
جذورُ الارض
تموتُ يابسةً
لولا دمُ الشهداء
*
جذورُ الأرض
ارشيفٌ حافلٌ
بتواريخِ الشهداء
*
ارواحٌ نورانيّة
تُضيءُ أعماقَ الطبيعة
جذورُ الأرض
*
ابجديّة ربّانية
تكتنزُ بالرموز
جذورُ الارض
*
خلفَ نعشِ شيرينْ
يسيرُ مرفوعَ الهاماتْ
شعبُ فلسطينْ
*
اشجارُ الزيتون
حشودُ الزعترِ البلدي
تُشَيّعُ نعشَ شيرينْ
*
على أجنحتِها النورانية
الملائكةُ تحملُهُ بالتراتيلْ
نعش شيرين الشهيدة
*
حتى الطيورُ والغزلانُ
جاءتْ تمشي مودّعةً
موكبُ تشييعِ شيرينْ
*
تبكي دماً وحنينْ
الأراملُ والحماماتْ
مجْلسُ عزاءِ شيرينْ
*
اصواتٌ غريبة
تُقلقُ ليلَ البلاد
ارهابيو الدم والكراهية
*
يُحاول العودة
الى نَبْعِهِ الأوّل
نهرٌ ضيَّع مجراهْ ❑❑

حمّى البحر المتوسط

جواد بولس
فلسطين

❑ "هزمتك يا موت الفنون جميعها.." هكذا قال محمود درويش

لم تعد أخبار إلغاء النشاطات الفنية على أنواعها في مدننا وقرانا العربية حدثًا يسترعي أي التفات مجتمعي، لا ولا بحدّه الأدنى. وتمرّ هذه الأخبار، على الأغلب، من دون أن تحدث ضجّة أكبر من ضجة سقوط شجرة عالية في غابة بعيدة، لا يسكنها بشر.

من المؤسف أننا كمجتمع ناضل وما زال يناضل من أجل نيل حرّياته الأساسية، ومن ضمنها، تاريخيًا، حرية الابداع والكتابة والانتاج الفني، قد استسلمنا لظاهرة القمع الخطيرة؛ فما زال ابناء جيلي يتذكرون كيف لاحقت المؤسسة الإسرائيلية الأمنية جمهرة المبدعين المحليين في محاولات لم تنجح، رغم قسوتها، باخراس أصوات "شعراء الحب والمقاومة"، أو قمع المسرحيين الأوائل، أو اسكات المغنيين الشعبيين، سواء كانوا حداة استنفرت حناجرهم أكف الشباب وحميّتهم دفاعًا عن الكرامة والعزة وضد الطغيان، أو كانوا مطربي أفراح يستحضرون الفرح العربي الشقيق ويرقّصون الليل على أغان كتبت أصلًا في مديح الأرض والثورة وحب الوطن. كنا مجتمعًا يحب الحياة ولا يقدّس الموت وثقافته.

قد يحسب البعض أن التطرق لهذا الموضوع ونحن على أعتاب خوض معركة الانتخابات للكنيست الاسرائيلية هو اجتهاد غير موفق من ناحية التوقيت، وإن كان يُجزي صاحبه أجراً واحداً؛ وقد يفتي غيرهم بأن التعاطي مع الفنون وقمعها ليس بالأمر الملحّ وأمامنا مهام جسام، في طليعتها مواجهة مأساة استشراء العنف في شوارعنا، وتفشي عمليات القتل على خلفياتها المعهودة: فامّا ثأر موروث، أو عرض مدّعىً، أو اجرام مستحدث ومستجلب إلى حواضرنا المنكوبة.

لا يستطيع عاقل وحريص أن يقبل بمثل هذين الادعائين أو ما يشبههما، وأن يترك، بسبب ذلك، قضية قمع الحريات الاجتماعية واضمحلال مساحات الحيّزات العامة ومكانة "ساحات البلد" في تراثنا المجيد؛ فمن يؤمن ويطالب بحريّاته يجب أن يعرف أنها لا تتجزأ؛ ومن يقاوم سياسات قمع الدولة من أجل نيل حرّيته، فالأولى به أن يصونها داخل بيته وفي حاراته وداخل مجتمعاته، وأن يقف في وجه من يحاول سلبها عنوة واكراهًا، مهما كانت المسمّيات والذرائع.

لا يمكن أن نجزّئ حالة الفوضى التي تسود مجتمعاتنا، فهي كلٌّ عضويّ متماسك بمتانة، يغذي طرفُه الواحد طرفَه الآخر؛ كذلك لا يكفي بأن نتمسك بإلقاء كامل المسؤولية على إسرائيل ومؤسساتها. فالدولة مسؤولة من بابي البداهة وواجبها تجاه مواطنيها؛ بيد أنها، كما نعرف وكما نتّهمها بحق، غير معنية بضمان سلامة مجتمعاتنا وغير قادرة على تأمين تلك السلامة.

ورغم أهمية ذلك، سأكتب اليوم عن الفرح وعن الرجاء، وسأترك "التنغيص" لمقالات قادمة؛ فتناول تبادلية العلاقات بين إسرائيل العنصرية وتقصيرها الممنهج بحق مواطنيها العرب، وبين واجبات مجتمعنا تجاه نفسه، سيبقى موضوعًا حيًّا، في الوقت الحاضر وفي المستقبل، وعلينا معالجته بجرأة وبمسؤولية تستوجبان تفكيك نقاط اشتباك تلك العلاقة مع عادات وأعراف مجتمعاتنا الاجتماعية المحافظة الموروثة طوعًا وابتهالا.

لن ننجح بتناول هذه الاشكالية بجدية مؤثرة من دون أن نخوض بموضوعية في مكانة أنظمة الثأر القبلي والعائلي التي ما زالت نافذة بيننا منذ تبنتها القبائل العربية قبل "قانون يثرب" وبعده؛ ولا أقلّ منها وجعًا جرائم قتل النساء باسم "شرف العائلة والقبيلة" المنتشرة في مواقعنا العربية؛ والسؤال ما علاقة الدولة وتأثيرها في هاتين المسألتين !

لن أكتب اليوم عن هذه المواجع، بل سأكتب عن الفن ومبدعيه الذين يحاولون بأدواتهم تحطيم تلك "الشواهد" وحث الناس على الغضب وعلى الا يستسلموا لليأس، ودعوتهم للثورة على واقعهم البائس.

دعاني مطلع شهر نيسان المنصرم الكاتب والفنان عفيف شليوط، مؤسس ومدير "مسرح الأفق" لحضور مسرحية بعنوان " أنتيغوني تنتفض من جديد"، التي كتبها وأخرجها بنفسه، وعرضت على خشبة مسرح حيفا. تحاكي فكرة هذه المسرحية الأساسية، حكاية أنتيجوني، بطلة مسرحية سوفكليس الخالدة، التي رفضت الانصياع لقرار ملك "كريون" وتحدّته مصرّة على التصدي لشرور الطغاة والمجرمين من خلال تسليط الضوء على مكانة القانون والحدّ بين حق الحاكم إزاء حق الشعب.

يعتبر لجوء المؤلف، عفيف شليوط، لايحاءات المسرحية الاغريقية و"موتيفاتها" مغامرة جريئة لما تتطلبه من إلمام وإحاطة بذلك الموروث الهام؛ فالعودة إلى أدب الاغريق العريق وحبكات مسرحيات كباره، كسوفوكليس، فيها من المخاطرة قسط ومجهود كبيران لاستعراض ممكن لامتزاج الثقافات، لا سيما فيما تركته القديمة من تجارب انسانية وقيم خالدة.

تطرقت المسرحية إلى أكثر من محور لامست هموم حياة مجتمعنا، وفي طليعتها قتل "انتيغوني الجليلية"، التي مثلت دورها الممثلة روضة سليمان، بيد شقيقها "دفاعًا" منه عمّا يسمّى "بشرف العائلة". تنتفض انتيغوني حيفا على عادات المجتمع البالية وتسعى من أجل نيل حقوقها وهي تعرف ما قد يكون الثمن. إنه قتل ككل القتل، فلا شرف فيه، بل انصياع أعمى لربة الظلام الدامس والعالم السفلي؛ هي "كاوس" عند الاغريق القدامى.

أما في الثلاثين من شهر تموز الفائت، فقد دعتني المخرجة مها الحاج، ابنة مدينة الناصرة، لحضور العرض الأول، في البلاد، لفيلمها الجديد "حمّى البحر المتوسط" الذي عرض مؤخرًا في مهرجان "كان" السينمائي، ونالت عليه، ضمن مسابقة "نظرة ما"، جائزة أفضل سيناريو. لقد تعرّف العالم على مها الحاج بشكل واسع بعد صدور فيلمها الطويل السابق " أمور شخصية"، عام 2016، حيث لفتت من خلاله نظر النقاد والمتابعين، ونالت عنه جائزة " آرشي" في مهرجان فيلادلفيا السينمائي، وجوائز أخرى.

لن أفي، في هذه العجالة، حق مها الحاج وأبداعها المتميز، ولا عملها الحالي الفذ، ويكفي، تعبيرًا عن تجربتنا، ما شعرنا به حين خرجنا مع نهاية الفيلم، قرابة خمسمائة مشاهد. انسللنا الى خارج القاعة بخشوع، وكأننا نترك معبدًا، معبّئين بمزيج من مشاعر الغبطة والغضب والحزن. لم نحمل داخلنا يأسًا ولا مشاعرا بالضياع، رغم مأساوية مواضيع الفيلم.

كانت علاقة وليد، الكاتب المصاب بالاكتئاب الشديد، الممثل عامر حليحل، بجاره جلال، الرجل العابث بالحياة ظاهريا، والمتورط في الخفاء في عالم الاجرام، الممثل أشرف فرح، معقدة وغريبة؛ وقد مرّت بمحطات عديدة وقفنا معهما في جميعها لنتعرف الى دواخل نفسية الفلسطيني حين يصاب بالاكتئاب وأسبابه، ويبقى محبًا لعائلته ولوطنه؛ وانكشفنا، كذلك، على شخصية وقعت ضحية لعالم اجرامي قاس لا يعرف حدودًا، كما تعيشه مجتمعاتنا المحلية. حاول جلال أن يغرق وليد في شباك متاهاته، والتحايل، من جهة أخرى، على عبثية واقعه الحقيقي بتتفيهه وامتصاصه، دون أن يعرف، او ربما عرف، انه الفريسة، لكنه كان يؤمن "ان الموت لا يخيف بل هي الحياة التي تخيف" . أدّى الممثلون أدوارهم باقناع وقد تميّز بشكل لافت الممثلان عامر حليحل واشرف فرح.

لقد تعرضت مها الحاج - كاتبة سيناريو الفيلم أيضًا - إلى قضايا هامة يعيشها ويعاني منها المجتمع في حياته اليومية. ولولا حذاقتها المهنية بحبك العسير وبالاخراج، لكنا شاهدنا مقاطع متقطعة مصورة من يوميات مجتمع صغير يمضي أفراده أيامهم بهامشية بائسة عادية قد تتكرر في مواقع أخرى؛ لكنها، بمهارة المبدع الخلّاق، أجادت جدل ضفائر مرايانا بأسلوب "السهل الممتنع"، فتناولت رزمة من عناوين اجتماعية كبيرة وصهرتها ببوتقة أنيقة حتى تلقيناها، نحن المشاهدين بفرح عظيم. لم تتركنا نتيه عند مفترق ملتبس، ولا نغفل للحظة؛ فعندما سافرت داخل التراب الوطني "سيّلته" في نفوس أبطالها بطبيعية غير مقتحمة وغير مبتذلة، ثم رتقت عليه، ببراعة رسام ملهم، قصصًا حقيقية، كعلاقة الرجل بالمرأة ومكانة الدين في حياة الناس ودور المدارس في تنشئة أطفالنا وجمالية جغرافيا بلادنا وغيرها من المشاهد التي جمّعتها بانسيابـية ورقّة مرهفة،

فظهرت أمامنا كرسم بديع، أجمل من تلك" الجرة اليونانية".

لن استطرد في رواية أحداث الفيلم كيلا أفسد على القراء متعة مشاهدته عندما سيتاح للجمهور الواسع ؛ لكنني سأقفل مقالتي بما كتبته لمها الحاج مباشرة بعد خروجي من صالة العرض في حيفا، واستميحها عذرا لانني أفعل. قلت " أيّتها المها. شكرًا على دعوتنا لحضور العرض. ما زلت أحاول استيعاب روعة ما شاهدناه قبل أن أقول لك ما أرغب أن أقول لك. خرجت من الصالة مع شعور باعتزاز شخصي ومزهوًّا كأنني صاحب هذا الانجاز المشرّف، فلك الشكر. حاولت أن أضبط مشاعري أمام الحضور ففضحني قلبي، ووشت عيوني بما حبسته في صدري، فلك الشكر. فرحنا رغم الغصة، تماما كما يجدر بالإبداع أن يعمل بالنفس البشرية، فلك الشكر . فدومي للعطاء هبة وسيري على دروب الشمس والنجوم، وعانقي المدى هناك عند حفاف الورد والندى. نحبك."

كدت انهي مقالتي عندما وقعت عيناي على خبرين مزعجين متزامنين، الأول يفيد ان لجنة الطاعة في جامعة بن غوريون في بئر السبع ستنظر في شكوى ضد الطالبة العربية "وطن ماضي" بسبب قراءتها قصيدة لمحمود درويش خلال يوم ذكرى النكبة الفلسطينية الأخيرة؛ والثاني يفيد أن بلدية مدينة عربية قررت منع اقامة حفل للفنان "تامر نفار" ، ابن مدينة اللد، بسبب مضامين أغانيه التي لا تتوافق وذائقة المجتمعات المحافظة، حسب ما جاء في الخبر.

قرأت؛ حزنت وعدت لاحضان "انتيغوني "و"حمّى البحر المتوسط" وأملي ...❑❑

نتفة عن الراهب الفرنسيّ والعربيّة الفلسطينيّة

❑ قبل سنتين توفي في القدس الراهب الكاثوليكيّ الفرنسيّ يوحنان إليحاي (Jean Leroy, جان لاروا، ١٩٢٦-٢٠٢٠) المعروف بكتبه عن تعليم اللهجات الفلسطينيّة وإعداد المعاجم لها وكان آخرها The Olive Tree Dictionary. A: Transliterated Dictionary of Conversational Eastern Arabic (Palestinian), Minerva, Jerusalem, 2004. يضمّ هذا المعجم العربي الفلسطيني-الإنجليزي ٧٦٣ صفحة، العربيّة فيه مكتوبة كالعادة في الدراسات اللهجيّة الغربيّة بالرسم اللاتينيّ؛ فيه تسعة آلاف مادّة، سبعة عشر ألف عبارة وفهرس قوامه أربعة عشر ألف لفظة إنجليزيّة

د. حسيب شحادة
فلسطين

يقال إنّ يوحنان إليحاي، كان أوّل من أقام مراسم العشاء الربّاني باللغة العبريّة في البلاد العام ١٩٥٦. له مساهمات في نقل الليتورجيا اللاتينيّة إلى العبريّة وخلق موسيقى كاثوليكيّة بالعبريّة. عندما بلغ سنّ العشرين من عمره، سافر إلى لبنان في إطار الخدمة الوطنيّة، وأخذ بتدريس اللغة الفرنسيّة من ناحية، وشرع في تعلّم العربيّة المحكيّة من الناحية الأُخرى. في العام ١٩٥٦ وصل إسرائيل، وسكن أوّلًا في رمات غان فيافا فقرية ترشيحا في الجليل الغربيّ فحيفا فالعفولة فالقدس منذ ١٩٨٦ حتى وفاته؛ حصل على الجنسيّة الإسرائيليّة في العام ١٩٦٠ .

للعربيّة الفلسطينيّة التي يتحدّث بها عرب الثمانية والأربعين وعرب الضفّة الغربية، علاقة وطيدة بالعبريّة الإسرائيلية، الشقّ الأوّل مند عام النكبة والشقّ الثاني منذ عام النكسة. وقد كرّس الراهب إليحاي جلّ وقته وجهوده في توثيق هذه العربيّة في الميدان من جهة، وبالتسجيل الصوتيّ من الجهة الثانية. في العام ١٩٧٧ نشر إليحاي معجمًا عربيًّا -عبريًّا، وفي العام ١٩٩٩ صدر عن وزارة الأمن الإسرائيليّ وقيست المعجمُ الجديد للعربيّة المحكيّة .

وهذا المعجميّ المتجوّل في المدن والقرى العربيّة في البلاد، كان يستمع، يسجّل، يسأل، يلاحظ ويتقصّى. ومن الطرائف أو النّهفات التي ذكرها أو حصلت عليها أذكر :
يُروى عن إليحاي قوله: عندما يلتقي رئيس جمهوريّة لبنان برئيس حكومته فهما يتحدّثان بالعامّية، أمّا تلميذ الصفّ السادس فيكتب ملحوظة ما لصديقه في الصفّ بالفصحى (لا علم لي بما ورد في الشقّ الأخير من الجملة).

سأل إليحاي راويًا لبنانيًّا مُسنًّا: كيف تُسمّي مَن ظهرُه مقوّس فردّ: أحْدب، والمرأة؟ قال: حَدْبه، والجمع؟ عندها ردّ العجوز مندهشًا: لم أرَ أناسًا بهذه الهيئة مجتمعين. (في لهجتي، كفرياسيف بالقرب من عكّا، نستعمل: إمْحَرْدِب، إمْحَرِدْبِه، إمْحَرِدْبين، إمْحَرِدْبات؛ في قاموس شجرة الزيتون لإليحاي نفسه ذُكرت صيغة الجمع: حُدُب، .hunchback هذه الرواية قد تذكّر بعض القرّاء المطلعين على التراث اللغويّ العربيّ، ببعض ما كان يسمعه النحويّون من الأعراب، الذين تحدّثوا بالعربيّة الفصيحة بالسليقة، مثل العبارة الشهيرة" أيشٍ هذا...

!اختلفت جهتا الكلام": أنظر مثلًا: أبو الفتح عثمان بن جنّي، الخصائص، تحقيق محمد علي النجّار، ج .١، بيروت: دار الهدى للطباعة والنشر، ط .٢، ١٩٥٢، ص .٧٦، ٢٤٢، ٢٤٩، ٢٥٠ .

بعد ذلك أراد إليحاي أن يعرف ماذا يسمّي العرب الـ bubbles سائلًا ما اسم ما نراه يتمايل في قارورة الكازوز وجاء الجواب "فقاقيع"، وأردف إليحاي مستفسرًا وما صيغة المفرد من تلك؟ دُهش الرواة من هذا السؤال وردّوا قائلين: من رأى واحدة منها، إنّها تظهر مجتمعة وبكثرة دوما. (في الأبحاث اللهجيّة الميدانيّة يفضّل عدم طرح مثل هذه الأسئلة المباشرة بل استقاء المعلومة من خلال المحادثة بدون أن يعلم الراي ما تريد).

ويضيف إليحاي قائلًا: توجّهتُ ذات يوم إلى بنّاء، كان يعمل في منطقة باب الجديد في القدس، وسألته ما اسم هذه الدائرة الكبيرة الظاهرة في مركز ميزان الماء؟ أجابه البنّاء: هَوا!، وقد تبيّن لإليحاي لاحقًا أنّ هنالك كلمة "فقيعة"

وعن تجربة أخرى، اختبرها إليحاي في مشواره الطويل في رصد اللهجات الفلسطينيّة وتوثيقها، نرى أنّه أراد أن يعرف ماذا يقول الفلسطينيّون عن شلافشتوندي) Schlafstunde/حرفيًا: ساعة نوم أي: القيلولة)، استراحة الظهيرة المسماة siest بالفرنسيّة، فسأل امرأة عن معنى اللفظة فلم تدري عمّا يتكلّم، إذ لا وجود لاستراحة الظهيرة/القيلولة بشكل منظّم في ثقافتها. عندها أخذ الراهب يصف لها بحركات اليدين ما يقصد، وعندها انتصبت قائمة وقالت "آه، هذا ما يقومون به في الأديرة..." (ثمة غرابة في الأمر، لماذا لغة الإشارة هذه والراهب يتكلّم العربيّة!)

في العربيّة لهجات كثيرة، ومن الممكن أحيانًا سماع أنماط لفظ مختلفة للكلمة ذاتها في قرى مجاورة، وبالطبع في مدن متفاوتة. ذات يوم، أخذ إليحاي امرأة مثقّفة من أم الفحم لمساعدته في عمله المعجميّ فسألته: عن أيّة عربيّة تبحث؟ أفحماويّة أم مقدسيّة؟ يذكر أنّ إليحاي في معجمه يحاول الإتيان بالنمط اللغويّ المشترك لدى أغلبيّة الفلسطينيّين في البلاد؛ إنّه اختار مثلًا "قبَداي" في حين أنّ اللفظة الشائعة في العامّيّة العبرية في البلاد هي "أبداي"، المقصود "قبضاي" من التركية .Karadayi ومتصفّح معاجم إليحاي يلاحظ تأثير العربيّة الكبيرَ على العامّيّة أو السلانج العبريّ، على سبيل المثال: "نقلة" العربيّة صارت "نَجْلة" في العبريّة الدارجة و"شَقْفه" أي "قطعة" تلفظ بالقاف أو الكاف أو الهمزة ومعناها "امرأة/فتاة فاتنة"؛ والكلمة "دَوين" دخلت العبريّة العامّيّة بمعنى "كلام فارغ"؛ و "مْعَفّن" أصبحت تعني "كلمة ذمّ" في العبريّة المحكيّة. ❑❑

فيلسوف المعرَّة المعبِّر الأمثل عن منحى التنوير في الإسلام

عبد الرزاق دحنون
سورية

❑ يقول الباحث والمفكر العراقي هادي العلوي: اجتمعت في فيلسوف المعرَّة المقوّمات النموذجية لمفكر حر، ألمَّ بفكر العرب وثقافتهم، واستمدَّ من تلك الثقافة رموزها الفلسفية، فأنضجها في أتون العقل، وصنع منها مشروعاً حضارياً عملاقاً نستطيع القول إنه ما زال حياً إلى يومنا هذا.

وفيلسوف المعرَّة بهذا القيد المعبّر الأمثل عن منحى التنوير في الإسلام. وبفضل طه حسين وعائشة عبدالرحمن عاد فيلسوف المعرَّة رمزاً من رموز الاستنارة وحرية الفكر وشجاعة العقل في العصر الحديث.

تنصبُّ في فيلسوف المعرَّة خلاصات حضارة عملاقة، كان هو جزءاً متميزاً منها، وعنصر تمرد أساسي ضدها؛ فهو نتاجها، الذي تُوجتْ فيه حتى بلغت النقطة الحرجة التي تؤذن بالانعطاف في مجراها الرئيسي لكي تستحيل إلى شيء آخر ينفيها في مجرى جديد، تنحل فيه تناقضاتها المدمرة لتبني كياناً آخر ينطلق منها دون أن يتعثر بأشلائها. ولعلها لو استجابت له حين بلغت الذروة لما سقطت شهيدة العجز عن التفتح والتجدد والديمومة.

استطاع فيلسوف المعرَّة بفكره الفلسفي المبثوث في مؤلفاته تجاوز زمانه ومكانه ليكون حاضراً في أي مسعى منشود لفيلسوف حرّ يريد أن يوحد بين الذات والنص لتوطيد سلطته الثقافية والفكرية.وقداستعملت لقب فيلسوف المعرَّة في أكثر من مقال منشور في الصحافة العربية، وأحببت أن يشيع هذا اللقب بين الناس، وهنا أعيد تأكيده ما استطعت إلى ذلك سبيلا. وقد شجعني على هذا الأمر ابن العديم صاحب كتاب "الإنصاف والتحرّي في دفع الظلم والتجرّي عن أبي العلاء المعرّي" وهو كتاب وضعه في الدفاع عن فيلسوف المعرَّة.

في حادثة تؤكد أن ارهاصات التفكير الفلسفي بدأت مذ كان أبو العلاء المعريصبياً يتعثر في طرقات معرَّة النعمان المتربة. قال ابن العديم:
خرجت جماعة من أهل العلم في حلب الشهباء إلى ناحية معرة النعمان، وقصدت أن تشاهد أبا العلاء، وتنظر ما يحكى عنه من الفطنة والذكاء، فوصلت إلى المعرَّة، وسألت عنه، فقيل لها هو يلعب مع الصبيان، فجأت إليه وسلمت عليه، فرد عليها السلام. فقيل له: إن هؤلاء جماعة من علماء حلب جاؤوا لينظروك ويمتحنوك، فترك لعب الصبيان، وقال لهم: هل لكم في المقافاة بالشعر؟ فقالوا نعم. فجعل كل واحد منهم ينشد بيتاً وهو ينشد على قافيته، حتى فرغ محفوظهم بأجمعهم، وقهرهم. فقال لهم: أعجزتم أن يعمل كل واحد منكم بيتاً عند الحاجة إليه على القافية التي يريد؟ فقالوا له: فافعل أنت، فجعل كلما أنشده واحد منهم بيتاً أجابه من نظمه على قافيته، حتى قطعهم كلهم، فعجبوا من فطنته وانصرفوا.

حين نمعن الفكر في كلمة فيلسوف ودلالاتها في الثقافة العربية نجدها مبهمة غامضة الحدود، يمكن إيجازها بمن درس العلوم الطبيعية والإلهية والخلقية درساً متقناً وكانت حياته موافقة لنتائج بحثه، ونطلق عليه اسم فيلسوف أو حكيم. وغالباً ما يكون المنهج المتسق والقدرة على الإبداع شرطين لا غنى عنهما لتفرقة الفيلسوف عن غيره.

قال محمد مهدي الجواهريشاعر العراق الأكبر مخاطباً فيلسوف المعرَّة في قصيدة مشهورة جاءت في واحد وتسعين بيتاً أنشدها أول مرة في المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري في ذكرى مرور ألف سنة على مولده وذلك في حفل الافتتاح المهيب يوم الاثنين الخامس والعشرين من أيلول سنة 1944 على مدرج جامعة دمشق في العاصمة السورية. حضر الحفل رئيس الجمهورية السورية السيد شكري القوتلي وكان طه حسين حاضراً في تلك الأمسية:

أحللت فيك من الميزات خالدة
حرية الفكر والحرمان والغضبا

ويعلق هادي العلوي على هذا البيت قائلاً: مع مراعاة قيود التعبير الشعري لا أود أن ينحصر الذهن في أن فيلسوف المعرَّة لم يتميز إلا بهذه الخصال الثلاث العظيمة، حرية الفكر، الحرمان الطوعي، الغضب، النقد، نزعة التمرد، حالة العصيان ضد الثوابت المترسخة في مجتمع متمدن.

هذا ما جعل عسكرياً يفك الحصار عن بلدة المعرة، ويتراجع عن خطة لاجتياحها واستباحتها بمناشدة منه. وهي حالة نادرة، أن يتراجع عسكري أمام فيلسوف، فقد كانت جيوش أسد الدولة صالح بن مرداس، صاحب حلب، تحاصر أسوار معرَّة النعمان وتتأهب لاقتحامها. فهرع أهلها إلى فيلسوفهم، الذي سفه أخلاقهم وعاداتهم ومعتقداتهم وخرافاتهم، فتوسلوا به إلى صالح، فخرج إلى ظاهر البلدة. وقيل لصالح: إن باب المدينة قد فتح وخرج منه أعمى يتوكأ على قائد له، فقال صالح: هو أبو العلاء، فدعوا القتال للنظر ماذا يريد؟ وكان قد أعد لهذه اللحظة لزومية قال فيها:

تغيبت في منزلي برهة
ستير العيوب فقيد الحسد
فلما مضى العمرإلا الأقل
وحُمَّ لروحي فراق الجسد
بُعثتُ شفيعاً إلى صالح
وذاك من القوم رأي فسد
فيسمع مني سجع الحمام
واسمع منه زئير الأسد

ورد عليه القائد: «بل نحن الذين تسمع منا سجع الحمام وأنت الذي نسمع منك زئير الأسد». ثم سأله عن حاجته فأخبره بها، فأصدر أمراً فورياً بالانسحاب، وترك المعرَّة لأهلها .

فيلسوف المعرَّة، رهين المحبسين، وبصير زمانه. درس على أبيه حسب ماورد في كتاب «أبو العلاء المعري» لعائشة عبدالرحمن. رحل إلى حلب حيث كانت الحركة الثقافية لا تزال نشيطة. وزار أنطاكية وطرابلس الشام ومرَّ باللاذقيَّة وأخذ من علوم اليونان وآرائهم الفلسفية.

في أواخر العقد الثالث من حياته رحل إلى بغداد ومكث فيها بحدود العامين عاد بعدها إلى معرَّة النعمان ليجد أمه قد لحقت بأبيه، فاعتزل الناس إلا خاصة طلابه وخادمه، حتى وفاته. ترك فيلسوف المعرَّة أكثر من خمسين كتاباً، فُقدت معظمها في اجتياح البيزنطيين لمعرَّة النعمان بعد وفاته بزمن، وإحراقهم مكتبتها، ومنها مكتبته الشخصية التي كانت في منزله وتضم مخطوطات فريدة لمؤلفاته ❑❑

ذكريات إسبانية
في وداع رائد الأدب الشعبي والحكّاء الأخير الدكتور أحمد مرسي

"لكنها تدور يا ملوك الطوائف"

❑ هناك من يترجلون في رحلتهم الأبدية فيستعصي المداد الإلكتروني على نعيهم وذكر مناقبهم، فصدمة الرحيل، رغم الاستعداد لها، حتى وإن كان الموت معلنًا بسبب المرض، تحول دون نعيهم. هذا رغم ادراكنا أن ترجلهم إلى السماء فيه راحتهم الأبدية بعد معاناة من المرض.

دكتور أحمد مرسي، أستاذ الأدب الشعبي الغيور على تراث مصر غير المادي، كان آخرهم. سيظل جرح فقده غائرًا في نفوس تلامذته ومريديه وأصدقائه، وكثيرون منهم نعوه وبكوا عليه خلال اليومين الماضيين منذ أن أُعلن عن وفاته فجر أول أمس الأربعاء، 20 يوليو 2022.

لم أر في حياتي مصريًا متيمًا بمصر مثل هذا الرجل. كانت أحلامه كثيرة لهذا البلد منذ أن تعرفت إليه في النصف الثاني من الثمانينات في مدريد، فور وصوله لشغل منصب مدير المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ومستشار ثقافي، المرحلة التي أقام خلالها جسورًا قوية للتعاون الثقافي بين مصر وإسبانيا.

فارقنا مخلفًا انتاجًا غزيرًا وخطوات ملموسة في التعريف بالموروث الشعبي، بينما شغل مناصب جامعية كثيرة وفي زارة الثقافة وأسس معهد الفنون الشعبية في أكاديمية الفنون التي ظل طلابها يرفلون في علمه الواسع وخبراته في الأدب والفنون الشعبية حتى آخر لحظة استطاع فيها التدريس.

تعرفت إليه في العاصمة الإسبانية وجمعتنا علاقة طيبة لم يبخل عليّ خلالها بمد يد العون وتقديم النصيحة، وكان ذلك في شتاء عام 1987. فبينما كنت في درس للغة العربية للأجانب في المعهد المصري لمحت شخصًا تضئ ابتسامته ظلام القاعة. ظننت أنه والد أحد الطلاب، لكنه عرفني بنفسه في نهاية الدرس. لم أكن قد علمت بوصوله لاستلام عمله مديرًا للمعهد. وبلهجته المميزة والآسرة، التي كان يستخدمها في سياقات بعينها، مازحني ما إذا كنت أعد أطروحة الدكتوراه في العربية أم في الإسبانية. كان في هذه المزحة دفعة طيبة على طريق تدريس العربية للإسبان. لقد أسرني بخطابه الإنساني وآرائه ومشورته في أزماتي الاجتماعية والأكاديمية. وإيمانًا منه بما يمكن أسديه لبلدي في مجال الدراسات الإسبانية أصر على عودتي إلى مصر رغم أنني كنت أعمل في جامعة مدريد. وهذه قصة طويلة، تصلح لتتحول إلى شريط سينمائي.

حققت نجاحات لم أكن أرها سنتئذ، لكنه كان يثمنها، وذات مرة قال لي إن نجاحي سوف يأتي لي بالكثير من الأعداء. وهو الموقف الذي عاشه في شبابه إذ نبهه أستاذه الدكتور عبد الحميد يونس، الذي كان يعشقه، إلى أن خطواته ستكون واسعة وهذا سيجلب له الحسد والمتاعب.

كانت بداية ساحرة، جعلتني أقدم كل ما كان في وسعي من أجل إنجاح مهمته الجديدة في قبلتنا في إسبانيا، المعهد المصري، نظرًا لمعرفتي بالبلد. لقد وطد علاقات المعهد بالجامعات الإسبانية وبمعهد التعاون مع العالم العربي، التابع لوزارة الخارجية الإسبانية، الذي تغيير اسمه ومهامه ضمن الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي. ورغم انشغالي في الدراسة والعمل فإنني دائمًا كنت أجد وقتًا لمد يد العون حبًا فيه وفي مصر التي كان يعشقها و علَّم كل من حوله عشقها. كنت شاهدًا على عشقه لهذا البلد الذي تفانى في خدمته.

عقد الكثير من المؤتمرات في المعهد المصري فكان بؤرة يؤمها المستعربون الإسبان وأساتذة من جامعات مصرية وعربية، لعل أبرزها كان مؤتمر مئوية طه حسين بعد. وكانت ثقة الإسبان به سببًا في مساندته والتعاون مع المعهد المصري. لم تقتصر مؤتمراته على مقر المعهد المصري بل امتدت إلى جامعات مدريد وغرناطة لتعقد فيها.

كان اثبات ذاته ونجاحه تحديًا شخصيًا لم يعلن عنه، إذ كتب أحد أساتذة دار العلوم الذين درسوا في إسبانيا مقالاً يعترض فيه على تعيينه مديرًا للمعهد لأنه لم يكن يتكلم الإسبانية. هذا رغم أن بعضًا ممن سبقوه في هذه المنصب لم يكونوا يعرفون الإسبانية، لكن بروزه ونجاحاته منذ شبابه لفتت الأنظار إليه، ورموا في طريقه أحجارًا. قَبِل التحدي وتعلم الإسبانية في فترة وجيزة. لقد أثبت أن عدم تحدث اللغة لا يحول دون أداء المهام التي بُعث من أجلها. لقد شغل هذا المنصب كثيرون درسوا في إسبانيا لكنهم لم يحققوا ما حققه الدكتور مرسي وما تركه من بصمه وآثارًا في هذا السياق، ما أثبت مع الأيام أن تحدث اللغة لا يضمن النجاح، فالنجاح من شيم البعض، وانتظار الدولارات نهاية كل شهر من شيم آخرين.

التف حوله فريق العاملين في المعهد إيمانًا بمشروعاته الثقافية والأكاديمية للنهوض بهذه المؤسسة المصرية التي بناها طه حسين في العاصمة الإسبانية في منتصف القرن العشرين لتكون جسرًا بين الثقافتين. ومددنا له وللمعهد يد العون كل قدر إمكاناته، ولم أبخل بشيء لتقديمه من أجل إنجاح تلك المؤتمرات التي أقامها، من بينها الترجمة الفورية والتحريرية دون تقاضي أتعابًا.

د. خالد سالم
مصر

بعد وصول الدكتور أحمد مرسي بقليل إلى مدريد منحت جائزة نوبل لنجيب محفوظ، وكان حدثًا عظيمًا إذ امتلأ المعهد المصري بممثلي وسائل الإعلام الإسبانية. كان غزوًا، حسب تعبير الدكتور مرسي. جاء الصحفيون يبحثون عن مادة عن نجيب محفوظ في هذه المؤسسة المصرية في مدريد، الذي لم يكونوا يعرفون عنه شيئًا. وهداه حسه إلى مخازن المعهد ليخرج النسخ المتبقية من كتاب تضمن ترجمة بعض قصص نجيب محفوظ، كان قد نُشر في الستينات، وتضمن مقدمة عن هذا الروائي كتبها المستعرب الكبير بدرو مارتينيث مونتابيث. أنقذ الموقف بتوزيع هذا الكتاب الذي نهل الصحفيون من مقدمته ما أرادوا، إضافة إلى لقائه بهم وتزويدهم بمعلومات أخرى عن صاحب النوبل الجديد.

وفي الحال فكر في وضع كتاب عن نجيب محفوظ عنوانه "عالم نجيب محفوظ"، بمشاركة كبار المستعربين الإسبان وعلى رأسهم بدرو مارتينيث مونتابيث وكارمن رويث برابو. ولثقته بي طلب مني إعداد دراسة عن "اللص والكلاب" وترجمة عدد كبير من الدراسات التي وردت إليه بالعربية، وشارك معي في هذه المهمة زملاء آخرون، من بينهم الصديق الراحل دكتور محمد أبو العطا.

من المحطات المهمة للدكتور أحمد مرسي في إسبانيا كان تعيينه مفوضًا لجناح مصر في معرض إشبيلية الدولي الذي أقيم في عاصمة إقليم الأندلس عام 1992 واستمر ستة أشهر. وهو المعرض الذي تطلب جهدًا كبيرًا في اعداد جناح مصر الذي كان نقطة ضرورية لرواد المعرض. كان جناحًا مشرفًا بفضل لمسات مفوضه الذي زاره ملك إسبانيا خوان كارلوس وبلغني لاحقًا أنه شرح له بالإسبانية محتويات الجناح. ومؤكد أنه يدخل ضمن التحدي الذي تشبعت به روحه عندما وطأت قدماه أرض إسبانيا. وكنت شاهدًا على زيارة شخصيات كبيرة للجناح من إسبانيا والخارج، لعل أبرزها يوم زيارتي له كان وزير خارجية أستراليا.

شهد المعهد في عهده الكثير من المعارض الفنية لفنانين مصريين وعرب وإسبان ومن أميركا اللاتينية، وهي القاعة التي كان قد أهلها المدير الأسبق للمعهد، دكتور صلاح فضل، مؤسس تقليد توطيد العلاقات الثقافية بين المعهد والمؤسسات الإسبانية، من جامعات ومعاهد بحثية.

احتفى الإسبان، من دائرة الإستعراب والخارجية، بما أسداه الدكتور أحمد مرسي للعلاقات الثقافية والأكاديمية بين البلدين، فمنحوه وسامًا رفيعًا في حفل أقيم له في وزارة الخارجية الإسبانية، تقديرًا له في نهاية خدمته في إسبانيا عام 1992. أظن أنه كان وسام الملكة إيسابيل.

حكايات مدريد وغرناطة وإشبيلة وطليطلة كثيرة، بعض منها نمائم، لعل أبرزها كانت لأحدهم، كان يريد أن يعمل نائبًا لمدير المعهد في عهد الدكتور مرسي، ولم يرد هذا الأستاذ الجامعي أن الأمر في يد وزارة التعليم العالي في القاهرة. فذات يوم أعطاني مطوية بالإسبانية لمراجعتها لغويًا، كانت لمعرض سيقام في المعهد. لم أكن أعرف من المترجم ولم أعرف سوى بعدها بشهور. صححت ترجمة المطوية. أعدتها للدكتور مرسي فأصابه ذهول! سألته عن المترجم، فأخبرني بأنه يعمل أستاذًا في أحد أقسام اللغة الإسبانية في القاهرة. هذا الأستاذ المزيف شن حربًا على الدكتور مرسي وناصبه عداء طويل الأمد ونالني من الإيذاء جزءًا. الطرف كثيرة لكن كياسة الدكتور مرسي مكنته من التغلب عليها، ومن بينها إضراب الطلاب المبعوثين قاده أحد الزملاء الأزهريين من أجل رفع قيمة المنحة، وكأن الأمر يُقرره مدريد المعهد. لكن هذه الأمور ربما لها وقفة في مجال آخر.
رحل أكبر حكائي الأمثال الشعبية، أكثر من تعلمت منه أمثالًا بعد والدتي. كنا نحن أصدقاؤه ننتظر طلته الندية كل صباح، على الفيسبوك، بمثل مصري أصيل يبدأه بجملته الشهيرة "صباح الخير. يصبحكم ويربحكم وبين العباد ما يفضحكم". وهي جملة معجون بعرق الشعب المصري الأصيل.

ختامًا إليك هذه العدودة، من التراث الشعبي المصري الذي كنت معجونًا به: "لو كنت أعلم ..إنك تروح ماتجيش ..كنت اوقّف لك على كل ناصية شاويش". في أمان الله وإلى لقاء في عالم أرحب وأكثر عدلاً ❑❑

ورقة أخيرة

د. أحمد الخميسي
مصر

❑ لم أكن قد رأيته منذ زمن، لكنني فوجئت به مساء اليوم وأنا أشق عتمة الشارع إلى منزلي، كان واقفا يترنح مستندا بكفه إلى جدار عمارة، وهو يتنفس بصعوبة وقد بدا الانهاك واضحا عليه. لبثت صامتا أنظر إليه. انقضى زمن طويل منذ أن صادفته أول مرة في مولد السيدة زينب، حين كنا صغارا نقصد المولد لركوب المراجيح أو للتفرج بألعاب سيرك داخل خيمة مهلل قماشها. رأيته حينذاك قرب جدار المسجد. جذبني إليه وجه أسمر وسيم، وشارب صغير، وبسمة مخاتلة ماكرة. كان واقفا تحت بصره صندوق خشبي على ثلاثة قوائم، يجري بين أنامله ثلاث أوراق لعب بصور الولد والبنت والشايب. اقتربت منه ووقفت بين العيال الآخرين أتابعه وهو يرفع عاليا أمام وجوهنا صورة البنت ثم يخلطها بسرعة مع الصورتين الأخريين، مرة وأخرى ثم يضع الأوراق الثلاث مقلوبة على سطح الصندوق، وينبهنا بقوله: "البنت هي الإجابة التي تفوز. أين البنت؟".

مددت إصبعي عدة مرات إلى ما تخيلته صورة البنت، لكني خسرت مرات عديدة ودفعت في كل مرة قرش صاغ وأنا مذهول من ثقتي السابقة المطلقة في موضع الصورة. كانت الأوراق الثلاث ملقاة تحت بصري ثابتة، أحدق بها، لكنني اخطيء مرة بعد الأخرى كأن القدر يسخر بي.

بعد ذلك بنحو عام قصدت مولد السيدة، ورحت أفتش عن الرجل لكني لم أجده، وخاب أملي أن أراه وأربح ولو مرة. درت بين خيام الألعاب وحلقات الذكر ولم أره، ثم انقضت نحو عشر سنوات، وتعلق قلبي بفتاة من سني، وكنت قد نسيته تقريبا إلى أن فوجئت به يمشي بجواري وأنا خارج من الجامعة أتجه إلى محطة الأتوبيس. دققت في هيئته. هو. لم تتبدل ملامحه تقريبا. نفس البسمة المخاتلة الجذابة.

بسط صندوقه الخشبي على الرصيف، وأبرز صورة البنت بجدائلها الطويلة، وخلطها بالصورتين الأخريين بسرعة البرق، ثم فرد الثلاث على سطح الصندوق وقال لي بنظرة تشع مكرا:" أين الصورة الرابحة؟".

تذكرت خيباتي السابقة في الفوز فتردت في الإشارة إلى الصور، فبادرني بالقول: " ثلاث ورقات. الحب هو التفاهم. الحب هو الرغبة. الحب هو الألفة". رفع الأوراق وعاد يخلطها بسرعة ووضعها تحت بصري. مددت إصبعي أشير إلى الورقة، فرفعها إلى أعلى. لم تكن البنت. خسرت. رآني واجما فربت على كتفي قائلا: " لا تبتأس. هي اللعبة. المهم الاستمرار". حمل صندوقه وترك المكان، ولوح لي بكفه من بعيد وهو يختفي وسط الزحام.

قبل أن أنهي تعليمي الجامعي كان لي صديق أكثر من أخ، أكل في بيتي، وارتدى قمصاني، وما إن احتجت إليه مرة حتى أظهر أنه غير ما تخيلت فقطعت علاقتي به، وكنت أحكي ما جرى لزميل لي في العمل ونحن جالسين في مقهى، وحين غادرت المقهى رأيت الرجل قرب كشك السجائر الملاصق لمحطة الأتوبيس. أبرز لي الورقات الثلاث وقال لي:"اختر. الانسانية أن تغفر. الانسانية أن ترد الصاع صاعين لكي لا يطمع فيك الآخرون. الانسانية أن تحب البشر كما هم وليس كما تريد لهم أن يكونوا". خلط الأوراق بسرعة ووضعها تحت بصري ولم أستطع الوصول إلى الصورة المنشودة.

بانقضاء عشرة أعوام سنحت لي فرصة السفر إلى الخارج، فوجدته إلى جواري وأنا لم أحسم أمري بعد، رأيته بنفس البسمة الماكرة الجذابة، لكنه كان قد كبر قليلا. أبرز الأوراق الثلاثة وتركها معلقة أمامي في الهواء لحظات، ثم قال: "في السفر سبعة فوائد. الوطن لا يتكرر ولا يستبدل. الوطن ليس فندقا نهجره إذا ساءت فيه الخدمة". خلط الأوراق وبسطها وقال: "اختر". لكني لم أستطع الوصول إلى صورة البنت.

عدت من السفر بعد أكثر من عشرة أعوام ، ولم يصادفني الرجل، ولا عاد يطرأ على بالي حتى مساء اليوم حين رأيته واقفا يترنح لصق جدار عمارة مستندا بكفه اليسرى إلى الجدار، خامدا، وقد انطفأت في عينيه النظرة المازحة المخاتلة كأنه ظل على التراب تحت ضوء القمر. لبثت أتطلع إليه أترقب أن يقول شيئا بعد كل تلك السنوات لكنه لم ينطق بحرف. قطعت الصمت الكثيف الذي اكتنف الشارع والأشجار وسألته: "أين الأوراق؟".

مال رأسه متعبا يمينا ويسارا. تلامست ركبتاه ترتجفان، ثم انهار على الرصيف. فرد ساقيه أمامه يلهث ثم مد ذراعه إلى جيب الجاكتة، لكن يده انزلقت خارج الجيب عدة مرات فأعاد الكرة بعصبية إلى أن استل ورقة واحدة ورفعها إلي. رأيت الورقة من ظهرها المنقوش بمثلثات حمراء دقيقة، أما الصورة فكانت مخفية في الناحية الأخرى. لمح أنني مشوش فتمتم بمشقة: " لم تعد أمامك فرصة للخطأ. هي ورقة واحدة أخيرة". قالها وتراخت ذراعه إلى جواره مغمضا عينيه فانفكت أصابعه عن الورقة وارتفعت ترفرف قرب هامات الشجرة وأنا أتبعها ببصري، ثم توقفت في الجو لحظة، فهرولت متقدما صوبها وقد فردت ذراعيي لأمسك بها، لكنها رفرفرت ثانية وارتفعت متقدمة إلى الأمام. توقفت أراقبها حتى سكنت في الجو لحظة، وقبل أن أندفع صوبها حلقت عاليا بعيدا في العتمة والسكون فظللت واقفا مكاني تحت ضوء القمر في غمرة الصمت المطبق غير قادر على الحركة ❑❑

رسائل من القدس وإليها ما بين الواقع والذات

زياد جيوسي
فلسطين

❑ كتاب جميل حمل اسم "رسائل من القدس وإليها" يعيدنا الى أدب الرسائل التراثي؛ فكان الكتاب ويضم بين دفتيه مئة واثنتين وثمانين صفحة من القطع المتوسط من اصدار مكتبة كل شيء في حيفا، يقع في تصنيف أدب الرسائل وهو تصنيف قديم ومعروف من تصنيفات الأدب يعود للقرنين الثالث والرابع للهجرة، وفي المرحلة الحالية من النادر أن نراه وإن بدأ العودة في إطلالات خجولة، وخاصة مع تغير وسائل التواصل والمراسلات، فجاء هذا الكتاب؛ ليعيد للحياة هذا التصنيف الأدبي المتميز.

ولعل ما يستحق الاهتمام في هذه الرسائل المتبادلة إضافة لمحتواها بين الكاتب الشيخ جميل السلحوت والكاتبة صباح بشير هو مسألتان: الأولى هو الفارق الزمني بالعمر بينهما، وهذا يجعل لكل مرحلة عمرية أفكارها المختلفة عن أفكار المراحل العمرية الأخرى، فالشيخ السلحوت مواليد 1949م ولا أعرف متى ولدت الكاتبة صباح بشير، وإن قدرت عمرها فهي في الأربعينات حيث بدأت الرسائل عام 2010م بين تواصل وتقطع، وكان لها عدة أعوام تعمل بمؤسسة بالقدس بعد تخرجها، وفي دبي كانت ابنتها بالجامعة معها، والمسألة الثانية هي المكان حيث أن الكاتبين من نفس المكان وهو القدس ومن جبل المكبر، وهذا يجعل المشاهدات والأحداث المعاشة في المكان متشابهة، علما أن الكاتبة خرجت من القدس الى دبي وعملت فيها فترة، وعادت ثم انتقلت الى لندن وجورجيا ومن ثم تونس فحيفا فتأثرت بتنقلها وتجوالها، ورغم الفارق الزمني بالعمر إلا أنه يلاحظ التقارب الكبير بوجهات النظر.

هذه الرسائل السلسة والتي ابتدأت منذ عام 2010م جالت بنا بأسلوب سلس ولغة مبسطة بين الواقع في مجتمعاتنا في الماضي والحاضر، وركزت بشكل أو آخر على معاناة شعبنا تحت الاحتلال بشكل عام والقدس بشكل خاص، وعما يقوم به الاحتلال من تهويد للقدس واستباحة الأقصى الشريف والاستيلاء على مساحات في حي الشيخ جراح، إضافة للأحياء الأخرى كما في سلوان من أجل تهويد هذه الأحياء، وعزل القدس عن محيطها العربي الفلسطيني من أجل العمل على تفريغها وإبعاد أبناء الوطن عنها، وكيف يطوقون البلدة القديمة بالقدس، وكل ذلك كان من نتائج اتفاق أوسلو سيء الصيت والسمعة، وبدعم من الحكومات الأمريكية والحكومات المطبعة من عبيد الأمريكان ومقاعد الحكم في عالمنا العربي، وتشير لعشق القدس وإن كل من يغادرها بسبب ظروف اقتصادية أو أسباب أخرى لا يستطيع البقاء في الغربة، فيعود إليها تاركا الغربة والشتات ليجدد عشقه المقدسي.

وأشارت الرسائل لدور الأب المثقف على تنشئة أبناء مثقفين كما تحدثت صباح بشير عن والدها المدرس، ودوره في حياتها وإنشاء مكتبة منزلية، بينما قارن الكاتب الشيخ جميل السلحوت وضعه مقارنة بوضعها حيث كان أبواه أميين، ولكنه تعب على نفسه حتى أسس ندوة البيت السابع المقدسية الثقافية، وكان صاحب الفكرة ونشأت وأصبح لها دورها بالتعاون مع مجموعة من المثقفين، إضافة للزخم الكبير من الكتب الورقية، كما أشار الكاتب ألى بعض العادات في مجتمعنا ومنها: عدم ترك القادم من السفر؛ ليرتاح فيأتيه الزوار وهو في غاية الإرهاق والتعب ويحتاج للراحة، وعن السلوكيات التي تصاحب جنازات الشهداء ونعيهم، وفي بيوت العزاء وعن انتشار ثقافة الجهل بين الناس.

وعن معاناة الكاتب مع الجهلة والذين يهاجمون كتابا على عنـوانه دون أن يفهمـوا العـنوان ولا يقرأون المحتوى، وعن الواقع الثقافي بالوطن وانحسار القراءة مقارنة بالماضي، وبيع بعض المثقفين والكُتاب ذممهم وانحرافهم عن الانتماء الوطني، حجم الاصدارات تحت بند الأدب مما يؤدي إلى انهيار ثقافي، وهذا فعليا ما بدأنا نلمسه في هذه المرحلة، وكذلك المسابقات التي تجريها وزارة الثقافة ودروع التكريم من مؤسسات غير موجودة في الواقع لأعمال لا تستحق وتنتشر على وسائل التواصل الاجتماعي، وأنا شخصيا أعرف كاتبة وكاتب يحترفان اختراع هذه التكريمات ويدفعون تكاليفها وزيادة؛ كي ينشروا عن أنفسهم أنهمت كُرّما، فهل معقول أن تكرم كاتبة في أنحاء العالم بما يزيد عن سبعين مرة خلال عدة أعوام؟ إضافة لشخصين يمنحان شهادات دكتوراة فخرية، وهما لم يحصلّا الشهادات الجامعية أصلا، علما أن الدكتوراة الفخرية لا تمنح إلا من جامعات رسمية وضمن شروط ليست سهلة، والأدهى ما لمسته أن بعضا من أولئك الممنوحين هذه الشهادت أصبحوا يضعون حرف د. قبل أسمائهم استنادا لهذا الوهم، إضافة للفضائيات ودورها التخريبي للثقافة ونشر ثقافة "الهبل" كما أشار الكاتب.

المرأة نالت نصيبها من الحديث بين معاناة إرث قديم ما زال يلقي بظلاله على الحاضر بحكم العادات، التي كما أشار الكاتب أنها أقوى من القوانين، وبين معاناة ما زالت تعانيها المرأة حاليا، وإن كان لا يمكن محاكمة مجتمع كان الجهل يلعب دورا كبيرا فيه، إضافة للأمية وقلة التعليم بمنظور جيل جديد من النساء يندر أن لا تكون فيه امرأة غير متعلمة.

كان من الممتع الحديث المتبادل عن كتابات كل منهما فأبدت الكاتبة ملاحظات على رواية للكاتب، وتحدث الكاتب عن مقالات الكاتبة، ورأى أنها تبشر بولادة روائية جيدة، كما تحدث عن إصداراته الأدبية والتي أتيح لي الإطلالة على بعض منها وجيد أنه تقبل النقد من الكاتبة. أمّا الكاتبة صباح بشير فمعظم ما قرأته لها كان قراءات عن روايات بشكل خاص، والكاتبة أشارت أكثر من مرة عن مشروع رواية لها تأمل أن تصدر قريبا، ولا أعلم إن صدرت أم لم تصدر بعد، لكني بالتأكيد أنتظرها.

كانت الرسائل تحمل بعضا من السيرة الذاتية لكل منهما مما أتاح للقارئ أن يعرف بعض المسائل عن مسيرة كل منهما وعن التجربة النضالية للكاتب جميل السلحوت.. وكذلك نجد الحديث امتد الى ما يسمى الربيع العربي، وأيضا جائحة الكورونا ووجهات النظر فيها، ونظرة الناس لهذا الوباء بين مرض وبين مؤامرة وبين مفهوم خاطئ للقضاء والقدر، والأخذ بالأسباب من اجراءات وقائية، إضافة لما أبداه الكاتب من قلق على مستقبل ومستوى الطلاب بسبب انقطاعهم عن التعليم الوجاهي، والاتجاه للتعلم عن بعد بسبب الجائحة، إضافة للقوانين التي تصدر وتهدف إلى تخريب عقلية الطلبة وممارساتهم في المدارس، وهذا أدى إلى نوع من الانفلات الاجتماعي فازدادت عمليات القتل إضافة للقتل الذي يطلق عليه زورا القتل من أجل الشرف، والمشاكل المجتمعية المنتشرة بما فيها تناول المخدرات، والتي يسهل الاحتلال وصولها للأطفال والشباب، إضافة للعديد من السلوكيات المجتمعية المنفلتة عن الذوق والأخلاق وانتشار الفساد.

من الجميل الجولات مع بوح الأمكنة التي أضافت للكتاب أدب الرحلات، فكانت جولات الكاتبة بين أنطاليا التي زارتها لحضور مؤتمر اعلامي، وأبدت ملاحظات على سلوك بعض الصحفيين الشباب في حفل عرض ، ووصفت العديد من الأمكنة في جولاتها هناك التي تمتعت برؤيتها، مثل البلدة القديمة والبرج الروماني والمتحف الأثري والمسرح الروماني والشلالات والشواطئ، ومارست متعة التسوق التي تعشقها النساء، وكذلك الأمكنة في جورجيا وتجوالها في حيفا والحديث الممتع عن علاقتها بالبحر والغروب، وكذلك عن دبي وأبو ظبي والإمارات الأخرى التي زارتها والتي أتيح لي زيارتها مرتين من خلال دعوات لي مرة لحفل توقيع، ومرة لمحاضرة عن التراث في معرض الشارقة للكتاب.

وكان حديث الكاتب عن المجتمع الأمريكي وما اسماه بالحضارة الامريكية التي نهضت على أكتاف المهاجرين من أوروبا ومن دول عديدة، وأيضا السّود والأسيويين، باستثناء أهل أمريكا الأصليين من الهنود الحمر الذي جرت عملية إبادة لهم من ذوي البشرة البيضاء، والذين ما زالوا يمارسون عنصريتهم رغم أن الدستور الأمريكي يمنع ذلك.

وكانت الإشارة لطبيعة الشعب الامريكي مهمة، وخاصة عدم اهتمامه بالشؤون السياسية تاركا ذلك للحكومات، وكذلك التفاوت الطبقي داخل المجتمع، والإشارة للجالية العربية كانت مفصّلة ودقيقة وهامّة، وخاصة فئة الطلاب منهم، ولعل تكرار الزيارات التي بلغت 26 مرة منذ عام 1984 أتاحت للكاتب النظرة الدقيقة للمجتمع الأمريكي وللجالية العربية فيه، كذلك التحدث عن الأمكنة وخاصة حدائق الحيوان ومناطق الطبيعة كما شلالات نياجرا وغيرها، كان يحمل روح أدب الرحلات، والكاتب كان في رسائله يفصل بين الحكومات والشعوب مثل بريطانيا وفرنسا اضافة لأمريكا أيضا، وفي نفس الوقت لم يغفل الحديث عن الأمكنة في وطننا المحتل، وعن ما آل إليه وضع رعاة الأغنام من دمار اقتصادي بعد أن كانوا يملكون ثروة حيوانية ضخمة قبل الاحتلال، لتصبح أوضاعهم في غاية السوء بعد الاحتلال وطردهم من المراعي ومصادرتها، ممّا أدى لتدمير الثروة الحيوانية، وأيضا تحدث عن الكثير من مناطق الوطن ومعاناة المواطن في التجوال، وأنا شخصيا تعرضت لعدة مشكلات مع جيش الاحتلال وقطعان مستوطنيه في بعض من جولاتي التوثيقية بالقلم والعدسة لمناطق الوطن، ومن خلال المقارنة حول ما ورد في الكتاب حول الرحلات نرى أن الكاتب تمكن من الحديث عن الأمكنة بقدرة أكبر من الكاتبة، ولعل ذلك عائد للتجربة الطويلة في التجوال، للكاتب اضافة أنه سبق أن صدر له كتابان عن أدب الرحلات.

وجيد ما أورده الكاتب الشيخ جميل السلحوت عن دور مؤسسات "الأنجزة" التي تكاثرت كما الفطر في بلادنا بدعم أوربي ودور تخريبي، وممارسة الفساد والثراء على حساب حقوق المرأة، إضافة لمعاداة المرأة للمرأة، وأيضا الفهم المغلوط للدين، وهذا ما أثلج قلبي، بسبب ما أراه وألمسه لدور هذه المؤسسات التخريبي المغطى بقشرة من عسل، وفعليا كان لهذه المؤسسات دور كبير في تخريب البلدان العربية تحت شعار الربيع العربي والذي لم يكن أكثر من وبال على رؤوس العرب.

كتاب ممتع بين التوثيق لمرحلة نعيشها وتشكل مرجعية لأجيال لم تعش ما عشناه بعد، وما بين سيرة ذاتية وإن كانت مختصرة فلم تطغ على الكتاب، وجولات ممتعة في أنحاء العالم وثقت بأدب الرحلات، وهو من الأدب الذي ما زال يجد الاهتمام به، وأراء جميلة قد نختلف مع بعض وإن كنا سنتفق مع غالبيتها، فكانت هذه الرسائل تمثل فعليا العنوان "رسائل من القدس وإليها"، فالقدس كانت في هذه الرسائل المسرح الأساس من بين المسارح الأخرى التي جرى الحديث عنها، ومن الجميل أن فكر الكاتبان بنشر هذه الرسائل الأدبية والاجتماعية والسياسية؛ كي لا تبقى حبيسة القمقم، فكان لهذا النشر إضافة جميلة للأدب العربي ولأدب الرسائل، هذا الأدب النثري الجميل والرائع، فأعادتنا الرسائل بأسلوب عصري إلى بعض من تراثنا الأدبي قبل قرون طوال بلغة متمكنة وقوية، ودون تعقيدات لغوية خرجت من الخاص إلى العام فكانت رسالة مقدسية فلسطينية بإمتياز ❑❑

ما أمرّ قهوة الجنرال!

ضيا اسكندر
سورية

❑ كم كانت وما زالت عبارة «المعلّم عازمك على فنجان قهوة» التي كان يستخدمها عناصر الأمن لدى اعتقال النشطاء السياسيين خلال حقبة طويلة من تاريخ سورية المعاصر، أثراً مزلزلاً في أذن متلقّيها. تلك العبارة "الدبلوماسية" كانت وما زالت أشدّ وطأةً من الصفعة. فالمطلوب للاستضافة يدرك من خلال تجارب الآخرين وتذوّقهم لقهوة المعلم، بأنه سيذوق الأمرّين لدى وصوله إلى الفرع.

«قهوة الجنرال» كتاب للمخرج المسرحي والقاص والأديب والسياسي غسان الجباعي، يحكي فيه عن تجربته الموجعة والمُتعِبة له وللقارئ في سجون النظام الرهيبة. والتي امتدّت لما يقارب العشر سنوات عقوبة له؛ لا لامتشاقه السلاح الناري في مواجهة السلطة، ولا بسبب انتمائه لحزبٍ سياسي معارض يدعو إلى إسقاط السلطة بالعنف، ولا حتى لاشتراكه في مظاهرة أو اعتصام غير مرخّصَين، بل فقط لأنه يحلم بالحرية والعدالة والكرامة الإنسانية.

الكتاب أو الرواية مسرودة بلغة شاعرية مدهشة. ولكن قد يلتبس على القارئ المعتاد على مطالعة الروايات الكلاسيكية أن يستسيغ تشابك الأزمنة والأمكنة في هذه الرواية. فالكاتب يبتعد عن التسلسل الزمني في أحداثها المتداخلة ما بين وقائع وذكريات التحقيق والسجن، وتفاصيل حياة المعتقلين وآلامهم وآمالهم، مع الحوار ما بين بطل الرواية وزوجة سجين سياسي آخر. ذلك الحوار الزاخر بالذكريات والغضب والمرارة والمآسي.

تعجُّ الرواية بمواقف تراجيدية يستحيل على القارئ ألّا يقف متنهّداً، وقد اغرورقت عيناه ليرتاح قليلاً من هول شراسة القهر والظلم والهوان. الواقعة ليس على المعتقل السياسي وحسب، بل وعلى أحبّ الناس وأقربهم إليه؛ كالأم والأب والزوجة والأولاد.

من أجواء الرواية:
«كان ذلك في فصل الخريف وكانت الريح شديدة لدرجة أنها اقتلعت تلك الورقة من يدها.. أخرجتها من صدرها وأرادت أن تعطيها للحارس، لكن الريح خطفتها من يدها.. يوم كامل وهي تركض من فرع إلى فرع حتى حصلت على تلك الورقة وخبّأتها في صدرها. من دون هذه الورقة لا تستطيع زيارتي. ولكنها ما إن وصلت إلى باب السجن وأخرجتها حتى طارت الورقة من يدها.. تركت العجوز أكياس النايلون، وركضت خلف الورقة كالمجنونة. لعبت بها الريح وتعرّت وسقطت ثم نهضت وركضت من جديد وسقطت.. ولولا ذلك الشرطي الشاب الذي كان يقف أمامها ويبتسم لها والورقة بيده، لما سمحوا لها بالدخول..»

ولكي لا نحرم القارئ من متعة كشف جمالية هذا العمل الإبداعي الجريء، وما يحتويه من مفاجآت ومواقف وحكايا تقشعرُّ له القلوب، سوف نكتفي باقتراح قراءة هذا الكتاب الهامّ ليعزّز لديه حلم التغيير والانتقال إلى سورية الجديدة، سورية العلمانية الديمقراطية العادلة والقادرة والمزدهرة ❑❑

قوة ضاربة للفاشية

سعيد مضية
فلسطين

كرونيكل، ومعظمها تتعلق بالهجوم ضد كوربين – المدافع الجسور عن حقوق الشعب الفلسطيني. في الحقيقة نفس المزاعم التي وجهت ضد كوربين تسوقها الصحيفة وغيرها من الصحف الموالية للوبي الإسرائيلي.

أبرز ما كتب ان الصحيفة واثنتان غيرها شاركت في نشر مقالة افتتاحية على الصفحة الأولى في صيف 2018 تزعم أن كوربين يشسكل "خطرا وجوديا" على حياة اليهود. بالمملكة المتحدة .

نُشِرت المقالة الافتتاحية في اعقاب الانتخابات التي جرت قبل عام، وكان كوربين سيتسلم رئاسة الحكومة لو كسب حزبه بضعة آلاف ازيد من الأصوات؛ بينما غرق حزب المحافظين الحاكم في لجة ازمة مستعصية، بدا حيالها أن إعادة الانتخابات احتمال وشيك. ولو فاز كوربين حينذاك فسيكون اول زعيم في عموم اوروبا يعترف بدولة فلسطينية ويفرض عقوبات ضد إسرائيل بما في ذلك حظر بيع الأسلحة كما جرى مع نظام الأبارتهايد في جنوب إفريقيا. في تلك الأثناء كان كير ستارمر، خلف كوربين في زعامة حزب العمال، يشن هجوما ضد الجناح اليساري بالحزب، مستخدما تهمة اللاسامية في سياق الحملة بدعم من جيويش كرونيكل ومثيلاتها.

يجدر الإشارة أن أبحاث ميلر بينت ادوارا مركزية لعبتها حركات محافظة مثل الحزب الحاكم، روجت للإسلاموفوبيا، وهو ما حذر منه مرارا شخصيات بارزة في حزب المحافظين مثل البارونة سايبدا وارسي. لم تتخذ إجراءات ولم تتبر منابر إعلامية تشن حملات.

.الصهاينة باتوا حيال تحد أعظم من ذلك الذي واجهه قائد سياسي او أستاذ جامعي. فخلال العقدين الأخيرين بات أصعب بكثير على الصهاينة الدفاع صراحة عن إسرائيل. ومن التطورات الطارئة:
- نجاح دعوات المجتمع المدني الفلسطيني منذ منتصف عام الألفين في شن حملة مقاطعة ضد إسرائيل من اجل وضع حد لاضطهاد الشعب الفلسطيني.
- الصور المرعبة للهجمات العسكرية المتكررة للجيش الإسرائيلي على الجماهير الفلسطينية في قطاع غزة طوال خمسة عشر عاما،
- افشلت إسرائيل حل الدولتين المقترح من القيادة الفلسطينية، وذلك بمواصلة البناء غير الشرعي للمستوطنات على الأراضي الفلسطينية؛ بينما ترفض في نفس الوقت الحل البديل ، دولة واحدة يُضمن فيها نفس الحقوق لليهود والفلسطينيين بالمنطقة. وبذا فإسرائيل تبدو دولة أبارتهايد والآن ينتابهم الخوف ، ما لم تتخذ إجراءات مشددة ، من أن يعمد علماء امثال ميلر لإدراج نقاش صريح في الأكاديميا بصدد إسرائيل، يكشف حقيقة لوبي العنصريين المعادين لشعب فلسطين.

يحتمل ان تكون الأهداف الأولى لحملة اللوبي الجديدة اتحاد الجامعة والكلية، وهو اتحاد تعليم عالي يمثل حوالي 120 الف اكاديمي وكادر مساعد ما زالت صامدة بوجه حملات

❑ درجت الصهيونية على مسرح السياسيات الدولية متزامنة مع الامبريالية ؛ كانت الغطاء السياسي لتدافع الاحتكارات اليهودية في الزحام المحتدم في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر بين ضواري الاحتكارات الامبريالية.أدرك هيرتزل هذه العلاقة فتوجه الى اليهود الأثرياء واستجابوا لدعوته وقرر المؤتمر الأول للحركة الصهيونية، 1897، التحالف مع القوى العظمى صاحبة القرار في السياسات الدولية ؛ دشنت الحركة الصهيونية قوة امبريالية، وقوة ضاربة.

يتتبع جوناثان كوك صحفي التقصي المقيم بالناصرة، هذا التواصل في مجاله العملي المعاصر فيقدم وقائع التآمر المعلن بين لوبي الصهيونيية وبين الرأسمالية الإ نجليزية؛ حيث يخوض لوبي الصهيونية مستنقعا يتعذرعلى السياسات الليبرالية أن تخوض فيه. فقد اطاحت بكوربين والجناح اليساري لحزب العمال بسبب موقف سياسي؛ في ذلك الحين شكلت قيادة كوربينلحزب العمال تهديدا لأرباح الرأسمالية الاحتكارية الإنجليزية. كتب جواناثان كوك بهذا الصدد: "بعد كوربين يحول اللوبي الإسرائيلي بنادقة باتجاه الأكاديميا" في إنجلترا.، نشر البحث في 18 أكتوبر 2021 على موقع كاونتر بانش الإليكتروني، ونشره أيضا موقع كونسورتيوم نيوز. اما البنادق فهي صحيفة "جيويش كرونيكل"وعدد آخر من المنابر الإعلامية.

فقد وجهت الصحيفة إنذارا بأن طرد البروفيسور ديفيد ميلّر مجرد بداية. ميلر عالم اجتماع في طليعة الباحثين في منابع الإسلاموفوبيا بالمملكة المتحدة. واشتمل بحثه على تقصي مفصّل لدور اللوبي الإسرائيلي في تصعيد العنصرية ضد المسلمين والعرب والفلسطينيين. وقبل ازيد من قرن قرر هيرتزل بلغة عصره ان الدولة اليهودية بالشرق الأوسط ستكون "جدار الدفاع عن أوروبا في آسيا، مركز حضاري متقدم بوجه البربرية". يبدو أن اللوبي الإسرائيلي يحضّر لحملة يستأصل بها الأكاديميين اليساريين ممن يوجهون النقد لإسرائيل بسبب استمرار اضطهاد الشعب الفلسطيني- أصداء للجهود التي بذلت ضد القائد السابق لحزب العمال، جيمي كوربين. في هذين الهجومين لم تحفل بالأمر الممثليات العربية والفلسطينية بلندن، ولم تحرك الديبلوماسية الفلسطينية أو العربية ساكنا للوقوف بجانب الضحيتين وهما يمتثلان لوازع الضمير الإنساني، متضامنين مع حقوق شعب فلسطين ومع معتنقي الديانة الإسلامية.

هجمات إعلامية أطاحت في السابق بكوربين، ونفس الأداة والأسلوب يستخدم ضد الأكاديميين اليساريين. كلا الهجومين قادتهما صحيفة "جيويش كرونيكل" الأسبوعية، الناطقة بلسان أشد الموالين لإسرائيل بين اليهود البريطانيين. ينطلق الهجوم الجديد إثر نجاح الضغط الذي مورس هذا الشهر على جامعة بريستول لطرد عالم الاجتماع ديفيد ميلر، احد اساتذتها، وذلك على الرغم من ان تحقيقا أجرته الجامعة برأ الأستاذ من تهمة اللاسامية. لكن تم طرده استنادا الى أسس مبهمة، "لم يرْقَ الى مستويات السلوك المتوقعة من هيئتنا وجامعتنا". خضعت الجامعة لحملة ادعاءات غير واضحة تزعم ان ميلر "ضايق الطلبة اليهود".

الهجوم على المسلمين مباح وانتقاد إسرائيل محظور!

بعد طرد ميلر نشرت صحيفة جيويش كرونيكل مقالة افتتاحية عنوانها "طرد ميلر يجب ان يكون البداية وليس النهاية"، خلص المقال الى أن "ميلر ليس صوتا منفردا، إنما هو ممثل مدرسة فكرية متغلغلة في جميع زوايا الأكاديميا". تقصد بذلك أساتذة الجامعات ممن وقعوا على رسالة تضامن مع ميلر في بداية العام؛ كشفت الرسالة، كما تزعم الصحيفة "مدى اتساع شبكة الدعم التي يحظى بها بجامعات بريطانيا". لا يفترض أن بعض الموقعين على رسالة التضامن مع ميلر يشاركونه آراءه، فالرسالة تدافع بصورة رئيسة عن مبدأ الحرية الأكاديمية وعن حق ميلر في متابعة ابحاثه أينما اوصلته.

ومعروف أن التحقيق الذي أجرته الجامعة برّأ ميلر من تهمة اللاسامية. تجاهلت الصحيفة الحقيقة وادعت ان الكثيرين ممن وقعوا على رسالة التضامن هم لاساميون أيضا. اما إزعاج الطلبة اليهود فمردها انتقادات للصهيونية واللوبي الإسرائيلي وجهها ميلر من على منابر خارج قاعة التعليم. لاحظت الصحيفة أن هؤلاء الموقعين "عدد لا باس به يمثل مؤسسات مجموعة رسل، بعض المؤسسات التعليمية الأوسع نفوذا بالمملكة المتحدة". وألقت الصحيفة الضوء على ان 13 من بين الموقعين يتبعون جامعة بريستول وذكرت أسماء عدد آخر من الموقعين.

تكرار تجربة ناجحة

نفس الأسلوب الذي اتبع سابقا مع كوربين، الزعم بانه مع الحلقة الضيقة المحيطة منهمكون في إشاعة اللاسامية داخل الحزب. وعبرالسنوات الثلاث السابقة سجلت "منظمة المستويات الصحافية المستقلة" (إيبسو) نقاطـــا عدة لتجاوزات صحيفة جيويش

اللوبي. تبدو مقاومته قد صلبت مواقف هيئات اكاديمية. يجدر ذكر المجلس الأكاديمي لكلية لندن الجامعية تمردت في شباط على تعريف التحالف الدولي لذكرى الهولوكوست ووسمته ب "التسييس والتفرقة". وحذر تقرير صدر في ديسمبر الماضي عن إدارة الكلية الجامعية من أن تعريف التحالف يخلط بين التحيز ضد اليهود والنقاش الجاري حول إسرائيل والفلسطينيين، وهذا من شانه ان يترك تأثيرات ضارة على حرية التعبير، مثل ثقافة الخوف او الصمت الطوعي لدى التعليم او البحث او النقاشات في الصف حول المواضيع الخلافية. إن هذا بالضبط ما يخشاه اللوبي وتشطاؤه في اتحاد الطلبة اليهود الذي وجه سهامه ضد ميلر. وبالحرب الجديدة ضد الأكاديميا – يساعده في ذلك حكومة اليمين – قد يكون بمقدورهم إيقاع أعظم الضرر بالنشاط الأكاديمي.

فاشية صريحة في الولايات المتحدة

اعتمد ترامب والحزب الجمهوري عقيدة الأصولية المسيحية، في تنصلهم من مبادئ الديمقراطية والقانون الدولي. الأصولية المسيحية، القاعدة الفكرية للمحافظين الجدد، تيار ديني محدود لدى طائفة كانت معزولة من البروتستنت الإنجيليين. عاشت على هامش التاريخ تردد بين الفينة والأخرى الطقس الديني بعودة اليهود إلى "وطن الآباء" وإقامة دولة اليهود كشرط لعودة المسيح وبدء الألفية السعيدة التي تختم الحياة على الأرض. ولذا أطلق على عقيدتهم الدينية "لاهوت ما قبل الألفية". ولم يشاركهم العقيدة الشرائح الواسعة من المسيحيية الأرثوذكسية والكنائس االبروتستنتية والكاثوليكية.

حققت المسيحية الأصولية ولاهوتها اندفاعة قوية في أوائل عقد السبعينات، مع انتصار إسرائيل في عدوان حزيران 1967، وتحولت إلى ما يشبه الدين الرسمي، حيث الدستور الأمريكي لا يقر بتدخل الدين في السياسة. غير أن الرئيس الأمريكي ريغان ثم الرئيس جورج بوش الابن، دأبا على تمويه المواقف السياسية بالدين. واستندا إلى مقولات لاهوت ما قبل الألفية في رؤية الصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي، وذلك لتبرير التحالف الاستراتيجي مع التوسع الإسرائيلي، و الانفراد في السياسات الدولية والعسكرة الطاغية، في ظروف بروز الأزمة البنيوية للرأسمالية. وطبقا لنظام التغذية الإرتجاعية. شكل انتصار حزيران عاملاً مرجحاً في توظيف إيديولوجيا المسيحية الأصولية أو المسيحية الصهيونية، كما باتت تسمى، كسلاح سياسي وفكري.، يتبناه الحزب الجمهوري الأميركي برئاسة ترامب. وبه يزحف نحو الفاشية.

بعدوان حزيران 1967، والذي أعدت إسرائيل عدده منذ 1963، امكنها حصار شعب فلسطين داخل أكبر سجن على الأرض، حسب توصيف إيلان بابه. بشر بلا حقوق، محرومون من حق تقرير المصير مقيمون مؤقتا فوق آرض وطنهم. حتى لو عادت التقييات الأثرية في فلسطين بما يثبت لهم "وطن آباء" او "أرض ميعاد" فإن القانون الدولي يفظ للمقيمين على الأرض حقهم في البقاء. بدون ما يثبت لليهود أي حق فقد منح العدوان إسرائيل حق الغزو، وتعزز اعتماد إسرائيل حليفا استراتيجيًا لدول الامبريالية وازدادت المعونات المقدمة لها، وبدا يتجسد تنظيم إيباك واكتسب نشاطه دينامية مولدة نتيجة الاستيطان والشحن العنصري صعد الليكود إلى السلطة لتكتسب حركة الاستيطان دفعة قوية وتغدو نهجا سياسيا وثقافة كراهية عنصرية موجهة ضد شعب فلسطين. بات المشروع الصهيوني بفلسطين جزءًا عضويا من نهج السياسة الدولية الذي خطه المحافظون الجدد باسم "القرن الأميركي". جرى ترويج ثقافة الليبرالية الجديدة تسخر من ثقافة الانتماء القومي او الإقليمي.

التدليس الصهيوني يثير الغثيان

ممن عبروا عن الاستياء الفيلسوف الأمريكي بول كيرتز كتب يقول: "أن الولايات المتحدة سائرة اليوم في طريق التحول نحو الأصولية، يرافقها مصادرة حقوق الإنسان لتحل محلها الشوفينية الحربية.".

لفت الكاتب الانتباه إلى تفوق الميزانية العسكرية للولايات المتحدة على مثيلاتها في العالم كله مجتمعة.

وعدّد من بين عوامل التحول السلبي "اتساع الحيز في وسائل الإعلام للتنجيم والشعوذة وكذلك للمعتقدات الخرافية والماورائية واللاعلمية والخوارق والعلوم الكاذبة، وتحدي الحرية الفكرية وانحسار الماركسية ونمو ما بعد الحداثة والانتصار الأمريكي كنوع من الاستعمار، حيث يجري ترويج فكرة الجيش الأمريكي شرطي العالم بالتحالف مع الأصولية المسيحية والمحافظة السياسية الأمريكية. ولاحظ كيرتز أن "العالم الثالث الذي كان متأثراً بالماركسية قبل عشرين أو ثلاثين عاما بات ساحة صراع الأصوليات المسيحية والإسلامية". واعتبر الفيلسوف كيرتز أن التحدي الأكبر يتمثل في الحفاظ على الديمقراطية والعلمانية من خلال فصل الدين عن الدولة.

ولدى دانييل بيومونت، المحاضر بجامعة روتشيستر، تولد اليقين حيال فاشية الصهيونية "سوف يحين الوقت حين يقول بقية العالم لإسرائيل كفى!".

ومضى الأكاديمي الأميركي الى القول: هناك تغير في الموقف تجاه إسرائيل حتى داخل الولايات المتحدة، والتغيير ملحوظ. الرسالة التاريخية لإسرائيل كما تزعم أن يكونوا "النور يضوي على الأمم"- تجسد سرقة أراضي الفلسطينيين وانتهاك حقوهم. إسرائيل تسرع الخطى إذا تفكر، شان اللصوص، ان لا احد يراقب. وحاليا دخل عامل جديد يسرع خطى إسرائيل؛ إذ يتنامى قلقها بسبب الغضب والازدراء المتعاظمين في العالم ضد سلوكها؛ بينما يتداعى نفوذ وقوة الصديقة الحقيقية، الولايات المتحدة.

وأضاف الأكاديمي الأميركي: يصعب تجاهل المظاهرات في أيار الماضي عمت العالم ضد عدوان سرائيل على غزة؛ تأكد التغير بالمواقف تجاه إسرائيل في أنحاء العالم، خاصة بين الشباب. بدأت تبرز وتتكرر في مظاهرات الاستنكار مفاهيم مثل "جرائم الحرب" و "أبارتهايد"، ودولة "مارقة".

الصهيونية مرادفة لليهودية، حسب زعمهافكيف تجيب على سؤال من هو اليهودي؟ هيرتزل أجاب ان اليهودية مفهوم عرقي؛ غير ان الرابي أبراهام كوك، الذي نشرت له مقالات عديدة مؤثرة وصار الرابي الأعظم في فلسطين الانتدابية اعتبر الكلمة مفهودما دينيا.

والمشكلة الثانية التي تواجه الصهيونية افتقارها الى إحدى الخواص الأساس للقومية التي هي تعبير عن جمهور يتجمع في منطقة واحدة . الصهيونية برزت شكلا لقومية بدون أرض. وعليهم إيجاد قطعة أرض، إما بالشراء أو بالسرقة. فضل هيرتزل مقاطعة معزولة بالأرجنتين؛ غير أن اعتبارات الديانة اليهودية تغلبت .

أخيرا يحكم على الصهيونية مفكران هما ماركس وفرويد. لم تكن الصهيونية قد ظهرت في حياة ماركس؛ لكنه بحث في المسألة اليهودية في حوار مع زميله الهيغلي الشاب برونو باور، الذي قال أن حل المشكلة اليهودية يتحقق في دولة علمانية. رد ماركس أن الدولة العلمانية لا تعارض الدين؛ إلا أنه ما من علاقة للمسألة اليهودية بعدم وجود عقيدة دينية مسوّمة بالولايات المتحدة؛ فالناس ليسوا أحرارا بالولايات المتحدة نظرا لخضوعهم جميعا لأحكام المال والسوق. والذي لا يملك حريته لايستطيع منح الحرية للآخرين. بهذا القول، الذي طلع به ماركس قبل أن تتبلور لديه فكرة الصراع الطبقي، دحض مقدما ليس القاعدة التي ستقف عليها الصهيونية، بل وكذلك الفكرة الراهنة المتعلقة بسياسات الهوية .

ما تتضمنه مقالة ماركس بوضوح أن أي حركة سياسية تستهدف تحرير مجموعة بشرية لوحدها يكون مآلها الفشل. من وجهة نظر ماركس فإن الشكل الوحيد للتحرر الإنساني يتم بتحرر الإنسانية جمعاء. في نظر ماركس فإن تحرر اليهود يجب أن يشكل جزءًا من تحرر جميع الشعوب الخاضعة لحكومات لا تخدم سوى مصالح الأثرياء.

انقضى ثمانون عاما على مقالة ماركس، بزغت الصهيونية وكسبت الأتباع ودخلت في صراع مع سكان البلاد الأصليين. المواجهة العنيفة تمت في آب 1929 حول الجدار الغربي لحرم الأقصى، المعروف بحائط البراق. سارت مظاهرة لمتطرفين يهود تردد الهتاف "الحائط لنا" واستفزوا المسلمين وحدثت اشتباكات في مدن فلسطينية ومنها الخليل.

في اوائل العام 1930 وجه حاييم كوفلر، رئيس الصندوق اليهودي، كيرن هاياسود في فيينا، رسالة الى فرويد يطلب منه التبرع. رد فرويد برسالة بقيت مغفلة حتى العام 1990. وردت ضمن مقال نُشِر ذلك العام، وفيها يقول:
لا أستطيع تلبية رغبتك . كل من يود التأثير بالجماهير عليه ان يقدم لهم شيئا يوقظهم ويثير حماسهم، وفي رأيي ان الصهيونة لا تسمح بذلك. لا أعتقد أن فلسطين يمكن ان تكون دولة لليهود، وكان أكثر عقلانية في اعتقادي لو أنشئت دولة لليهود في بلد غير مشحونة تاريخيا؛ لكني اعرف أن وجهة نظر عقلانية لم تكسب حماس الجماهير والدعم المالي من الأثرياء". وما آلم كوفلر بصورة أشد قول فرويد ان "التعصب الذي لا مبرر له من جانب ناسنا يتحمل اللوم في إيقاظ شكوك العرب. ولا أستطيع التعاطف مطلقا مع عمل خيري يحيل جزءا من جدار هيروديان الى تراث قومي، يسيء بالنتيجة الى مشاعر اهل البلاد."بعد قراءة رد فرويد امر كوفلر بإخفاء الرسالة وكتب على طرفها العلوي "لا يراها الغرباء".

ان الخلل الجوهري بالمشروع الصهيوني والصدامات والمشاكل التي تتالت قد رآها مسبقا ماركس وفرويد ، وبات حاليا يراها أعداد تتعاظم من البشر في أنحاء المعمورة❑❑

ناسا وجهاً لوجه مع قريش

نضال نعيسة
سورية

❑ تمعنت في تلك الصور البديعة، التي يحتار المرأة في تصديقها أم لا؟ وهل هي حقيقة ام مختلقة كما ذهبت جحافل الفرقة الناجية، التي أصابتها تلك الصور في مقتل، وبدأت على الفور معزوفة التخوين والرفض والتكذيب لتلك، لأنها تنسف معتقداتها، وتدحض أساطيرها، وتفنّد كل روايتها، وتزلزل كيانها الإيديولوجي والعقائدي، وتطيح بتراث 1400 عام من الدجل والتزوير والفبركة والتأويل والتضليل والترقيع والتأليف وترويج وفرض الأوهام والأساطير بالسيف والغزو والتكفير.

ولكن مع الاختراقات العلمية الكبيرة التي حققها بنو البشر في الكثير من المجالات، ومع غزو الفضاء، وثورات التكنولوجيا الرقمية المتسارعة والمتعاقبة، لا بد للمرء إلا أن يخضع ويستسلم أمام حقيقة تلك الصور، التي جاءت في وقت دقيق جداً من حالة استقطاب وسباق وتنافس علمي هائل بين قوى عظمى، وفي ظل عدوان روسي شرس على أوكرانيا، لتحمل معها تلك الصور والتسريبات، رسائل تحذيرية صارمة وواضحة ومباشرة لروسيا، وقيصرها المنتشي بانتصاراته على أطفال أوكرانيا العزّل وتدميره لبينيتها التحتية، بأنه من المبكر جداً لروسياً أن تحلم بمنافسة الغرب "الأمريكي تحديداً"، و"بأنك يا بوتين تقارع هؤلاء"، وأن الهوة والمسافة الرقمية والعلمية كبيرة جداً بين الجابين، وعليه أن يقلع عن نزواته الإمبراطورية وأحلام اليقظة القطبية الخادعة بالعودة لزمن القياصرة، والاتحاد السوفييتي المنهار والمدحور.

كما لا تخفى دلالات وإشارات ورسائل نشر الصور تزامناً مع زيارة بايدن للسعودية، وهي مهبط الوحي (الكائن الوهم المتخيل من قبل مؤسس الإسلام) تقول بأن لدينا ما ينسف شريعتكم، وشرعيتكم، رسالة مبطنة وتهديد للنظام السياسي القائم برمته على العقيدة والفلسفة المحمدية للكون او ما يعرف بالإسلام، ورسالة هامة ومؤثرة من جو بايدن، المتعثر والمضطرب والحائر في أوكرانيا، الى منظومة قريش البدوية برمتها، بأننا سنحطم أصنامكم ومعتقداتكم ودينكم فيما لو لم تنتظموا معنا وتصطفون جانبنا في حربنا مع القيصر الهائج الطموح.

ولكن، والأهم، وبعد التسليم المطلق بحقيقة تلك الصور، فهل يعقل أن خالق هذه المجرات اللامتناهية "المفترض" طبعاً، كان على تلك الصورة البائسة والمزرية والعاجزة والضعيفة التي حاول عرب الصحراء "مؤسسو الإسلام" وثقافة البدو تصويره عليها؟

ومن تلك الصورة المحزنة التي رسمها بدو الصحراء عنه بأنه كان في نهاية الأمر، يشتغل "خطّابة" و"مأذون" شرعي عند راعي غنم بالصحراء ويسمسر له، ويستجيب لكل نزواته الغريبة، و"يطبّق" له النسوان، كما حصل مع زينب زوجة ابنه المختطفة، ويوافقه على زيجاته الكثيرة، حتى من طفلة صغيرة، ويشرعن له ولهه بالنساء ويكتب له الفرمانات و"المراسيم" الإلهية فيما يتعلق بغزواته وشهواته الجنسية ولا يتحفظ أبداً على مجامعته لعشرات النساء في يوم واحد دون أن يغتسل (بغسل واحد)، لا بل إن خالق و"صانع" هذه المجرّات، وفق التصور الديني، يعظم من شأن ذاك الرجل ويقدسه ويصلي هو ومعاونوه وحاشيته من السكرتارية العبرانيين (الملائكة) على ذاك الرجل "الأمي" ذاك ويعظّم من شأنه كثيراً، وحمّله أمانة ورسالة خالدة تتلخص فقط في أن يخبر الناس بأن خالق تلك المجرات موجود في الطابق السابع من هذه المجرات (الصور لا تشي بوجود سماء لا أولى ولا سابعة)، وعلى البشر أن يعلموا بوجوده ويطيعوه في كل ما يقوله لهم، واعتبره "حبيبه المصطفى"، وأن هذا المبدع "المفترض" للكون الهائل طلب وتوسل، في نفس الوقت، من "شوية" دواعش زناة قتلة سباة قاطعي رؤوس وصعاليك ونخاسين ولصوص وطالبي غنائم ومنتهكي أعراض نساء، أن ينصروه على أعدائه وبعض مخلوقاته المشاغبين والمشركين الذين يشككون بوجوده، ولا يعبدونه، ولا يصدّقونه ولا يعترفون بألوهيته رغم أنه قد صرح في أحد كتبه بأنه لم يخلقهم هم والجن (كائنات غير مرئية يحكى أن خالق الكون أوجدهم) إلا ليعبدوه.

ومع ذلك، ويا للغرابة، لم يعبدوه، وبات في حيص بيص، لذلك طلب من دواعش بالصحراء "الجهاد" وفرض القتال عليهم في صفّه، وفق فلسفة قريش، كي يجعل أولئك "المشاغبين" يعبدونه، (أحد هؤلاء الدواعش الذين نصروا خالق هذا الكون كان قد طبخ رأس غريمه، واسمه بن نويرة، كي يزني بامرأته في ذات الليلة، وأطلقوا عليه لقب سيف الله المسلول أي أن ذاك البدوي القاتل هو اليد اليمنى لمبدع هذه الصور الكونية وهو سيفه الذي يضرب به بشراً آخرين كفروا بمبدع الكون وأشركوا به وطبعاً وقتها خالق الكون لم يكن يعلم بوجود الصواريخ وما كان هناك صواريخ فرط صوتية التي يستخدمها بوتين ضد الشعب الأعزل وإلا لأطلقوا عليه لقب كروزر الله المجنّح مثلاً).

غير أن الأهم من كل ذلك، هو تلك الحقائق العلمية العظيمة التي أسست لها الصور، ورسمت تصوراً جديداً للكون، ونسفت في نفس الوقت خزعبلات الأديان، وخرافاتها، وزعبراتها وأضاليلها، وأكاذيبها، ودجلها وتصوراتها المتواضعة والضحلة عن الكون، وزلزلت كل تلك المسلّمات، التي حاولت ترسيخها عبر قرون طويلة، فالأرض ليست محور الكون، ولا تكاد ترى من بين مليارات المجرات التي لا أحد يعلم لماذا خلقها مبدع الكون و"خسر" عليها دون فائدة والتي لم نكن لنعرفها لولا ناسا (الأديان وخالقها في كتبه لم يتكلموا أبداً عنها)، ولا وجود بالمطلق للسماء السابعة، ولا وجود أصلاً لشيء اسمه "سماء" رفعت كسقف و"دون عمد"، والكــون فسيح لا متناه، والأرض ليست مسطحة أبداً كما كتب خالق الكون في كتبه، وأمــا الشمس فهي ثابتــة ضمن نظــام ومجموعة شمسية لا تجري لمستقر لها، ولا تذهب مساء لعين حمأة، ولا تسجد لعرش غير موجود وغير ظاهر في تلك الصور، تقول الأساطير الدينية أن الله المفترض يجلس عليه، ويدير الكون من خلاله، وكان قد صنعه وأنجز ذلك العرش خلال ستة أيام من العمل والشغل و"الدوام" ثم بعدما أنهى عرشه (خلصت الورشة)، جلس عليه في اليوم السابع، وأما الجنة التي عرضها السموات والأرض (سموات وليس سماء واحدة)، فلا تظهر بالصور، ولا جهنم وبئس المصير التي أعدّت للكافرين الذين لا يصدّقوا خزعبلات وأساطير الأولين ❑❑

حلم بعرّي واقعا

الشرقي لبريز
المغرب

❑ ذات ليلة، من ليالي الصيف الحارة، وانا غارق في النوم اذ بجدتي، تلك المرأة الامازيغية الجميلة التي لم تتسلخ عن جلدها، قاومت وقاتلت لتربي أبناءها بعرق جبينها حين ترملت وهي في عز شبابها، لا عرق افخادها، تزورني في المنام، قمت قبلتها قبلتي المعهودة.

نظرت الي بشفقة زائدة، وهي تقول: "كم اشفق عليكم انتم جيل الفيسبوك، اختزلتم عالم...".
ثم اردفت قائلة:
"لي يده في النار ما شي بحال لي يده في الكلافي " الراقنة"".

ودعتني وهي تقول:
"انتم جيل الانكسارات والهزيمة تسكنكم، ولن تورثوا ابناءكم غير الخنوع...، كم تمنيت لو كنتم مخصيين لينقطع نسلكم...❑❑

هراء أيديولوجي عن الله والبشر والعالم

د. مازن كم الماز
سورية

❑ إذا كنت غير قادر على أن تتغير، كيف تطلب من الآخرين أن يفعلوا ذلك، كيف تبني أحلامك و "مشروعك" "للتغيير" على هذا الاحتمال الذي تعجز عن تحقيقه أنت نفسك.

الله دائم النوم أما البشر فلا تعرف عيونهم طعم النوم.

الملحدون والمؤمنون يتشابهون لدرجة التطابق في هذا الأمر: كلاهما يحتاج الله لكي يدعي البراءة و ليتخلى عن أية مسؤولية عن كل شيء، خاصة عن أفكاره و أفعاله الخاصة، مرةً نفيًا وتارةً أخرى إثباتًا.

هناك بشر يولدون أرستقراطيون بالفعل، صحيح أن أبناء الملوك وأشباههم، من يمكننا تسميتهم "أرستقراطيون بالإكراه", يتعلمون ممارسة السلطة والاستبداد ربما أفضل من أي أرستقراطي "بالولادة" وأن قضاء يومين في قصر أو على عرش ما مهما بلغ من التفاهة، كفيل بتحويل أتفه البشر إلى جلادين وقتلة، لكن بعض البشر يولدون بغرائز أرستقراطية، ليست سلطوية بالضرورة ولو أن ذلك لا يعيبها قط، رغم أني أزعم أن الاستبداد ليس جزءً من الغريزة الأرستقراطية بالضرورة رغم أنه قد يكون إحدى تجلياتها المحتملة ...

الاستبداد مرض، مرض يصيب العبيد كما السادة، رغم أن إصابة العبيد به أكثر خطورة وإلحاحًا وأسوأ إنذارًا ... إنه مرض، تمامًا كالحياة، أو هو نصفها، تمامًا كما أن الصحة هي نصفها الآخر ... لكن العنجهية والاستخفاف بالمصاعب وبالحياة وبالآلام والتعالي على الحياة والآخرين وما يحترمونه ويقدسونه، بكلمة خلق القيم وتحطيمها، هي أقرب إلى سلوك غريزي منه إلى سلوك تعليمي أو تلقيني ... يمكن غرس قداسة أشياء ما في وعي البشر و سلوكهم ، من المال إلى الآلهة ، لكن لا يمكن غرس أو تعليم النظر إلى كل شيء في العالم على أنه منزوع القداسة، قد يتعلم المرء ذلك بتجربته الخاصة لكن بكل تأكيد ليس بالتلقين أو بالإكراه.

لكن سؤال الغرائز ليس سؤالًا سهلًا، على العكس تمامًا، لأننا في الحقيقة مدينون بكل شيء لهذا العالم، نحن خالقو أنفسنا مجازًا فقط، إننا أبناء هذا العالم، غصبًا عنا، إننا نتاج معقد بل شديد التعقيد لهذا العالم، إنه خالقنا، لكنه لا يتمتع لهذا بأية سلطات خاصة علينا، هذا فقط يذكرنا بأننا نتاج معقد لعوامل لا حصر لها، بعضها يعود إلى أزمنة مغرقة في القدم وبعضها إلى حاضر طارئ في عالم دائم التغير لا يثبت على حال ... الغرائز هنا لفظ اصطلاحي أكثر منه مفهوم محدد أو ثابت أو واضح أو حقيقي ربما، نستخدمه للدلالة على مشاعر وأفكار وسلوكيات لا تتطابق، ظاهريًا على الأقل، مع الواقع، تشذ عنه و تخالفه، لا تتماشى مع السائد أو المباشر أو العام أو القطيعي ... إنها تمايز وخصوصية بل و شذوذ كما يسميها القطيعيون.

لكن هذا لا يعني أن هذا الاختلاف أو التمايز هو شيء إيجابي بالضرورة، أكثر من أنه موجود، تمامًا كما أن كوننا جميعًا بشرًا لا يعني أننا جميعًا متساوون بالضرورة أو بالقطع
الله ليس أكثر من مبرر نستخدمه عند الطلب و حسب الرغبة، حتى لو كانت تلك الرغبة مكبوتة أو لا واعية ... بل خاصة إذا كانت مكبوتة أو لا واعية ... الليبراليون على حق، الله كذبة ضرورية، كذبة ضرورية لهم قبل غيرهم.

بالنسبة لأصحاب الأوهام و رغم أن لها جميعها نفس الدور الوظيفي، تتفاوت الأوهام وتتفاضل، أوهامنا الخاصة تأتي دائمًا في المقدمة ... أما بالنسبة لضحاياها فالموضوع مختلف جذريًا ... ما الفرق إذا كنا نتعرض للقمع أو للذبح أو للاستعباد باسم الديكتاتورية أو باسم الحرية، باسم إله محمد أو يسوع أو بإسم شيفا أو باسم الإلحاد، القيود والأسوار تلغي الفوارق بين السجون، لا توجد ولا يمكن أن توجد، أية مساواة بين الحراس والمساجين، كما قال اورويل، الحيوانات متساوية، لكن بعضها أكثر مساواة من بعضها الآخر ❑❑

صورة من التغريبة الفلسطينية

❑ اغتصب الجنود النساء الثلاث، لم يمنعهم من ذلك الدماء التي كانت تسيل من رجل إحداهن، ومن ثم قام الجنود بإعدامهن بالرصاص، وألقوا جثامينهن بجانب الطريق، واستمروا في طريقهم إلى معسكر الجيش القريب وكأن شيئاً لم يكن.

منتصف أيلول 1948, الجنود الإسرائيليون يراقبون المنطقة القريبة من قرية هونين شمال فلسطين، من بينهم كان الأخوان إبراهام ودانيال بخار، ومناحم شولمان، ويتسحاك حوفيري. رأى إبراهام الصبايا الثلاثة (وفي مصدر أخر "أربعة نساء") عن بعد، وعرف أنهن عربيات، فلباسهن الأسود الطويل يشي بذلك، لمعت عيناه شراً، وامتلأ قلبه حقداً، فهذه ساعته للانقضاض على الصبايا الثلاث، والانتقام لقريبه الذي قتل قبل عدة أيام قرب تل العزيزات القريبة من صفد.

فاجأ الجنود الصبايا الثلاث وانقضوا عليهن. لم تكن أمامهن أي فرصة للهروب، فالجنود في كل مكان يصوبون البنادق باتجاههن. شعر الجنود بنشوة كبيرة وهم يقودون الصبايا الثلاثة شمالاً باتجاه معسكر الجيش. بعد نصف ساعة من السير على الأقدام أمر ابراهام الصبايا الثلاث بالوقوف، ثم طلب من كل واحدة منهن أن تختار الطريقة التي سيغتصبها بها الجنود .لدى سماع هذا الكلام، قهقه باقي الجنود بصوت عالٍ، بينما تسمرت الصبايا الثلاث في مكانهن.

اقترب دانيال من احدى الصبايا، فانقضت عليه صديقتها وحاولت منعه من لمسها، فأطلق عليها مناحم النار. حاولت الصبايا الأخريين الهروب، لكن الجنود كانوا أسرع منهما.

بعد عدة أيام، علم قائد المعسكر بفعلة جنوده، فقام بإرسال عدد من الجنود إلى الموقع، وأمرهم بدفن الجثامين لإخفاء الجريمة. من بين الجنود الذين شاركوا في عملية نقل ودفن الجثامين كان يعكوف غرينفلد، يوسف بن موشي، تسيون بن زخاريا، وموشي بن يهودا.

في شهادته قال تسيون بن زخاريا إن الجنود وجدوا جثامين لثلاث نساء فقط، كن يلبسن ملابس سوداء، وكانت تخرج منهن رائحة كريهة، وتم دفنهن بملابسهن في قبور عمقها نحو سبعين سنتيمتراً، أما صديقه موشي بن يهودا فيضيف أنهم استمروا بالبحث عن جثمان المرأة الرابعة، ووجدوا بعد عدة أيام جثمانها متحللاً فقاموا بحرقه.

في التاسع والعشرين من شهر تموز لعام 1948، زار وزير الأقليات والشرطة الإسرائيلي كيبوتس كفار جلعادي، الذي يقع على بعد بضع كيلومترات من قرية هونين، والقائم على أراضي قرية خربة طلحة المهجرة (تل حاي) ، واجتمع هناك مع المسئولين الصهاينة في المنطقة. أحدهم يدعى ناحوم هوروفيتس، وهو أحد الصهاينة البارزين آنذاك. في هذا اللقاء أخبر ناحوم الوزير أنه قبل وقت قصير ألقى رجال الجيش القبض على أربع نساء عربيات، فاغتصبوهن وقتلوهن. تحدث ناحوم عن أربع نساء، وليس فقط عن ثلاث.

لا نعرف إذا كان أكثر تفصيلاً، لكن هذا ما تم توثيقه، وتسجيله في بروتوكول اللقاء. شارك في اللقاء نفسه عامنوئيل فريدمان، مسئول الأقليات في منطقة صفد، الذي تم توثيق حديثه في البروتوكول. يقول إنه توجه إلى المسئول في وحدة "عوديد" العسكرية، وهذا وعده في التحقيق بالموضوع، يضيف عامنوئيل أن "العرب في المنطقة يعلمون عن اختفاء النساء الأربع لكن لا يعلمون ما حل بهن".في العاشر من آب من العام عينه، عقد اجتماع في كيبوتس كفار جلعادي بين أهالي هونين، والمسؤولين الصهاينة. مثّل أهالي هونين في هذا اللقاء أربعة من وجهاء البلدة وهم شاكر فارس، ومحمد واكد، ومحمد الشاعر، ومحمد برجاوي، وشارك من الطرف الثاني عامنوئيل فريدمان. في اللقاء، طالب وجهاء القرية السماح لأقربائهم الذين هجروا قبل ثلاثة أشهر بالعودة إلى بلدتهم. تعهد عامنوئيل نقل طلبهم إلى المسؤولين عنه مع توصية بالاستجابة إلى مطلبهم.

التقي وجهاء القرية مع ممثلي الصليب الأحمر، وأخبروهم أن عامنوئيل قد وعدهم بإعادة أقربائهم المهجرين، وسلموهم قائمة بأسماء أهالي القرية، وطلبوا منهم إيصال الخبر المفرح إلى أقاربهم ليتحضروا للعودة. إلا أنه فجر اليوم التالي، وبتاريخ الثاني من أيلول، أصدر الجيش الإسرائيلي أمراً بمهاجمة قرية هونين، وبحسب الأمر فإن "الهدف هو مهاجمة القرية، وإعدام عدد من الرجال، وأخذ الأسرى، وهدم عدد من البيوت، وحرق ما يمكن حرقه"، ويوصي الأمر بتزويد الفرقة التي ستهاجم القرية بمائتين وخمسين كيلوغراماً من المتفجرات. أما نقطة تنفيذ الهدف، فهي "منارا" والهجوم على القرية من جهة الغرب إلى الشرق.

هاجم القرية جنود وحدة "البلماح" بقيادة الضابط "يغآل الون"، ضمن عملية يفتاح لتطهير الجليل الشرقي، وأعدموا فيها عشرين من أبنائها، ثم هدموا بعض البيوت، وحرقوا ما يمكن حرقه.أما من بقي حياً، فتم تهجيرهم شمالاً، وأزيز الرصاص فوق رؤوسهم.

جهاد ابوريا
فلسطين

خلال محاكمة الجنود، أمر الطبيب الشرعي الإسرائيلي بإخراج جثامين الصبايا الثلاث من القبور ليتم فحصها. في تقريره، يقول الطبيب الشرعي إنه يقدر عمر الأولى خمسة عشر عاماً، والثانية عشرين عاماً، والثالثة أربعين عاماً. لقد تم اغتصابهن جميعاً، وبعد ذلك تم إعدامهن.

لقد تم إعدام الصغرى بإطلاق الرصاص على جبهتها، أما الوسطى فقد تم إطلاق الرصاص على رأسها من الخلف، بينما لم يتم التعرف على طريقة إعدام الثالثة. لقد كان رأسها مهشماً بالكامل.

اعترف الجنود الأربعة أمام المحكمة أنهم اغتصبوا النساء، وقاموا بإعدامهن انتقاماً لمقتل جندي قريب لهم في منطقة تل عزيزات. لكن رغم ذلك، برأت المحكمة الجنود القتلة المغتصبين، وعللت ذلك أن النساء اللاتي تم إغتصابهن، وإعدامهن، هن مجندات عربيات!!!!!!!❑❑

VOICE OF WOMEN
LA VOIX DES FEMMES

CANADIAN VOICE OF WOMEN FOR PEACE

المكان ورقيّ الإنسان

ماجد ع. محمد
سورية

❑ يبحث الأحمق عن السعادة في مكان بعيد
لكن الحكيم ينميها على خطى أقدامه."
جيمس أوبنهام

بحسب فرويد أن هنالك ثلاثة اكتشافات مهمة نالت من كبرياء الإنسان واعتداده المزعوم بنفسه، أولها: الثورة الكوبرنيكية العلمية، والثانية اكتشاف اللاوعي لدى الكائن الناطق، والثالثة هي النظرية الدارونية التي أظهرت الأصل الحيواني للإنسان، إذ تبين أن الإنسان الحيوان لا يُفارق كلياً مرحلة الغابة كحيوان بدائي، بل قد ينقلتلك الحيوانية معهفي ترحاله مِن مكان لآخر، وقد يأخذها وهو يصعد برفقتها أرقى مراتب المدنية وأماكنها، ما يعنى أن المكان بحد ذاته ليس بالضرورة أن يكون قادراً على أن يُخلص الكائن الناطق من بهيميته الكامنة، إلاَّ في حال اشتغل المرءُ على الذات وصقلها وخلّصها من تلك المثالب التي تلقفها من محيطه الكبير أو نهلها من منزله الصغير أو توارثها عن أجداده البشر.

***

في لحظة صراحة وتصالح مع الذات قال: لقد كذبنا وكُذب علينا بكل ما يتعلق بالوطن كمكان جغرافي، لذا أنا حالياً سأكف عن الوهم الوطني وكذبة الوحدة الوطنية، وبودي أن تنشطر البلادإلى مجموعة من الجزر المعزولة، إلى حين أن يثبتوا بأنهم قادرون على العيش سويةً، وفي ذلك الوقت يمكن الاستفتاء على لم شمل الجزرإن اتفقوا على ما يخدم مصالح الجميع، أو تبقى كل جزيرة راضية في العيش ضمن حيزها البرمائي.

***

إن أيقنتَ بأنك في المكان الخاطئ ولم تستطع التأثير على مسار مَن كنتَ تظنهم على السكة المعوَّجة معك، ولم تكن ممكن لهم السطوة لإحداث التغيير المنشود، فعليكَ إما التعوُّدعلى الأخطاء إلى حين،ومن ثم تقترف أصغرها ضرراً في بعض الأحيانِ إذا لزم الأمر لكي تُشعر الحضورَ بأنكَ منهم ولستَ رقيباً عليهم، وفي الأخير إن أخفقتَ في زحزحتهم أو مجاراتهم أو مناغاتهم أو تحريكهم قيد أنملة، وخشيتَ من الانزلاق إلى مرتع المثالب معهم، ليس لكَ إلاَّالإنسحابَ من المكان الخاطئ، لئلا تكون محط كربٍ بين مَن تحلو لهم الإقامة في تلك الديار، أو حاول الاقتداء بقول الجاحظ: "لا تبقى في المكان الذي لا تعرف فيه قيمتك."

***

المكان الذي تتضخم الأنوات فيه جديرٌ بالمغادرة
لأنه إن لم تلسعك حراشف المبالغة
طالتك شظايا انفجار أحد المطوسنين.

***

المكان الذي لا تكون مرغوباً فيه من قبل أُناسه
لا قيمة لمنطوقك فيه
حتى وإن كنت تبذر الدُّرر بين جُلاسه.

***

لا يبدو صحيحاً على الدوام قصة أن المكان يُغير نفسية الإنسان، والدليل أني تجولت ساعات طوالفي أرقى الشطوط باستنبول التركية، ولكن مع ذلك فالكآبة لم تغادر محياي طوال اليوم، كما أن مكوث فنانين وأدباء كبار ولسنواتٍ طوال في أمريكا وبريطانيا ودول الاتحاد الأوروبي لم يدفعهم للتخلص من عقدة المذهبية أو التطهر من دوافعهم العنصرية.

***

يتصور الدخيلُبأنه كلّما ازداد تشبهاً بأهل الدار وملتصقاً بهم كان جميلاً بنظرهم، ناسياً بأن الكائن الطبيعي ينجذبلوجود المغاير ولا يتأفف من حضور المختلف كما هو حال العنصري،ويبقى اللامتصنع لدى الأسوياء من أصحاب المكان محبوباً أكثر ممن كان للحرباء إماماً أو خليل.

***

بناءً على تماهي بعضهم مع الأماكن التي يلتقطون فيها أو بجوارها صورهم، ولكي لا نتحدث عن الآخرين كما جرت العادة، وكمثال حي فنحنمنذ سنوات نعمل في منطقة يقطنها أصحاب الشأن ورؤوس الأموال في هذا البلد، ولكن لا أنا استطعت أن أقترب قيد أنملة من طبيعة القاطنين فيها، ولا المكان جعلني أتشبه به أو بطبيعة الحياة فيه، بل ودائماً بقي سؤال يراودني مرات كثيرة وهو ما الإضافة التي يلتمسها أو يحصل عليها المرءُ من خلال مجاورته لأفخم أو أقذر الأمكنة؟ وما القيمة التي يضفيها المكان على المرء، أي مكانٍ كان، إذا لم يكن الشخص بحد ذاته قيمة! لذا كن قيمة من دون الحاجة للتباهي بمجاورة قصور الأمكنة أو حظائرها.

***

ظل شهوراً يفكر بكيفية الوصول إلى القمة المشتهاة، فلم يكن يُشغله شيء غير الوصول إلى ذلك المكان الذي بدا مقدساً لديه، ولكنه بعد أن وطأت قدماه تلك البقعة لم يجد أي أثر لقصة القداسة وملحاقتها، وقد بدا له المكان عادياً حدّ الضجر، فما من سحرٍ يجعله يعيش لحظات السعادة كما ظل يتصورها لأشهر، بل وداهمه شعور الرتابة وبدأ الملل يحوم في أرجائه، ولكن من غير التصريح بذلك، لأن مشكلته أنه من فرط ما مدح وروّج لعظمة ذلك المكان وأهميته لم يعد يتجرأ على إبداء ملاحظاته حول سلبياته، طالما أنه تخلى عن الكثير من الأشياء والأصدقاء هنا لقاء الحصول على حق المكوث هناك.

***

هل نبالغ في الحكم إن قلنا بأن مَن يُفضل المكان على الإنسان هوإما يعاني من علّةٍ قريبة من الإنفصام، أو أنه في دخيلة ذاته المضطربةيرى نفسه حيناً دون المكان،وأحياناً أعلى من الإنسان الذي يشغل ذلك المكان؟

***

رصفُ الكلمات لوحدها في محفلٍ ما لا يجعل المكوّم في ذلك المكان روضاً من رياض الفكر والفن والأدب، ولا القوانين والدساتير والسواتر اللغوية بمقدورها صنع مكتوبٍ خلاَّب، إنما يجب أن يحتوي المُنتَج قبل كل شيء على فكرةٍ أو موضوعٍ أو رسالةٍ أو مادةٍ جوهرية أو نواة، وقبلها طبعاً امتلاك الشخص لأدوات ذلك الفن، ومن ثم تأتي الكلمات واللغة للمساهمة في إتمام تلك العَمارة، سواءً أكانت الناطحة أدبيّة أم فكرية أم فلسفية أم نقدية أم لوحة مرسومة بخَضَبَ الكلمات.

***

الأماكن لا تحدث انتفاضات مباشرة أو فوريةفي تربة العقول، إنما العقول هي المتكفلة بإحداث المفاجآت عندما تستطيع تشييد ما لم تعمره من قبلُ وتغيير أطباع أصحابها بُعيد الوصول، وذلك وفقاً للقوانين والطبيعة والمناخات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الجديدة، هذا إذا ما كان العقلُ عقلاً منفتحاً على العالَم بكل اختلافاته، لا معقلاً لتصورات وعاداتٍ متكلسة من المحال أن تزول ❑❑

كل شيء على ما يرام

إيلي حاج
لبنان

الأطفال الكبار المفطومون عاطفياً
يلبسون بذلاتهم، ثيابهم في الصباح
يذهبون إلى وظائفهم
كأن لم يفقدوا أحداً
ولا شيء ينقصهم
في الظاهر
كل شيء على ما يرام

The Leftist
WRITER
The First and Only Multi-Cultural Review in Diaspora
Academic - Political - Ideological - Critical and Cultural

Dr. William Nassar
Home Sick

Issue No. 71:: August 2022 | Specialized in Written Creativity and Fredom of Thought | العدد رقم 71 :: آب – أغسطس 2022

⌘ أولوية النشر للمواد المرسلة خصيصاً للكاتب اليساري.

⌘ المواد المنشورة في المجلة تعبر عن رأي كاتبيها، واا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة، باستثناء الموقعة باسم رئيس التحرير أو مدراء التحرير .

⌘ مجلة الكاتب اليساري غير تجارية وغير ذات نفع مادي، تغطي تكاليف إصدارها من خلال نشر بعض الاعلانات لمؤسسات أكاديمية وإنسانية وثقافية.

⌘ ترتيب الأسماء والمواد يخضع لاعتبارات فنية ولا علاقة لها باسم أو أهمية الكاتب.

⌘ المراسلات تتم باسم رئس التحرير، مع مراعاة ذكر الاسم الكامل والعنوان ورقم الهاتف.